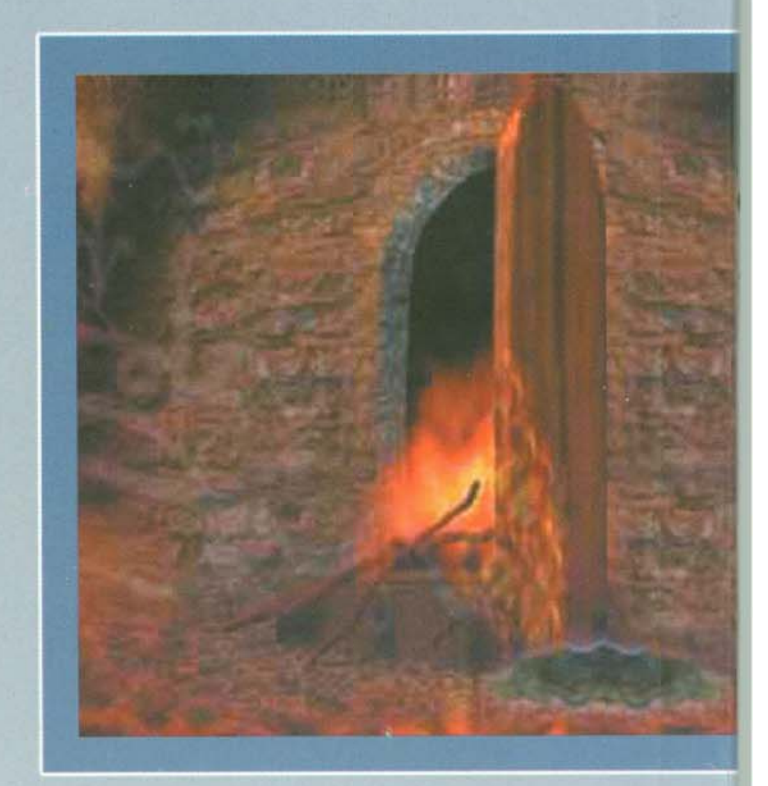


شرح الكبائر

للشيخ محمد بن عبدالوهاب

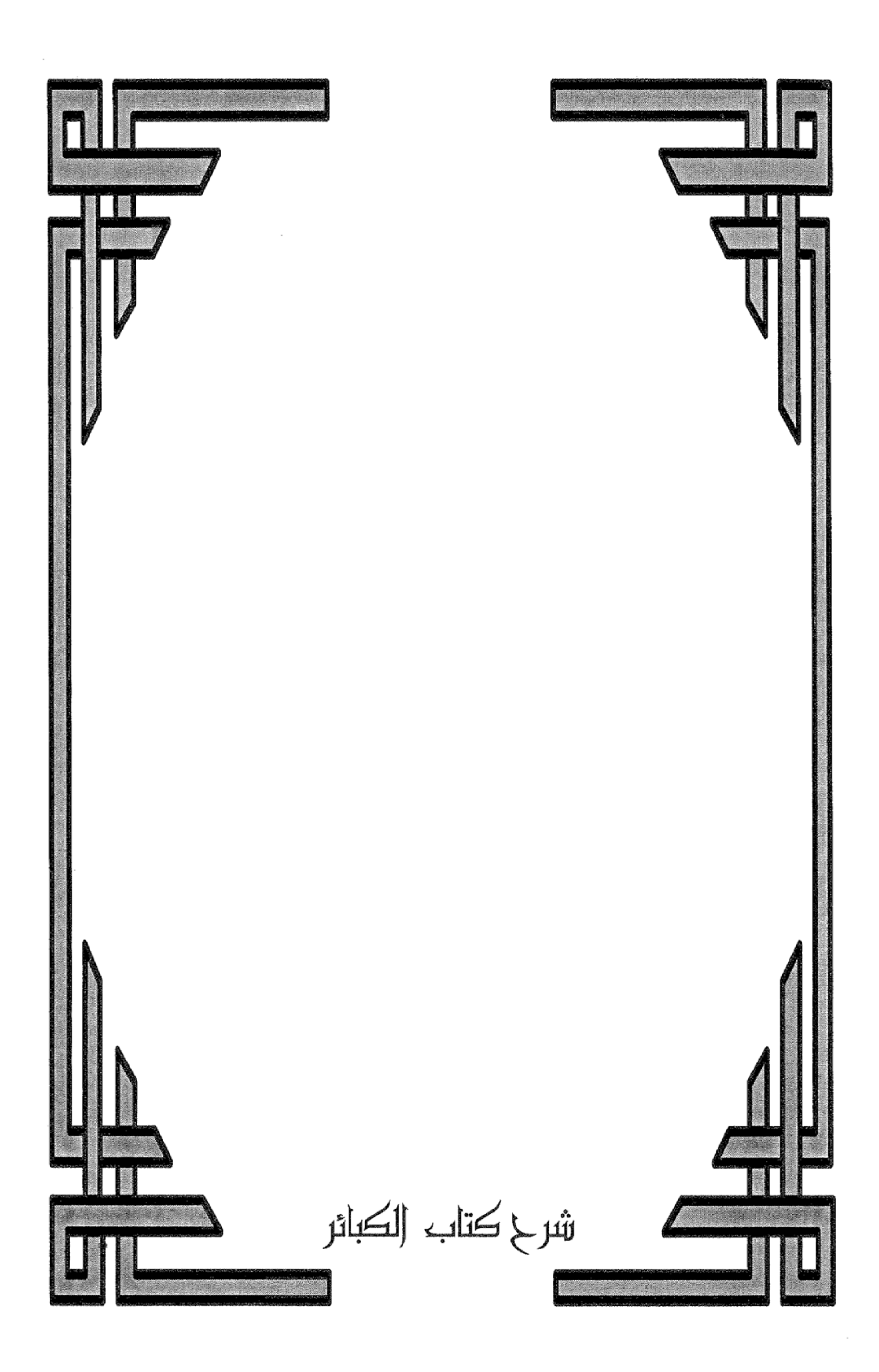
تأليف / عقيل بن عمر السقاف



تحقيق
أكرم مبارك عصبان



دار الأخلاء للنشر والتوزيع
الأخلاء اسم له معنى



شرح كتاب الكبائر



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م

وزارة الثقافة - فرع حضر موت

رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: ٢٠١٠/٢١١م

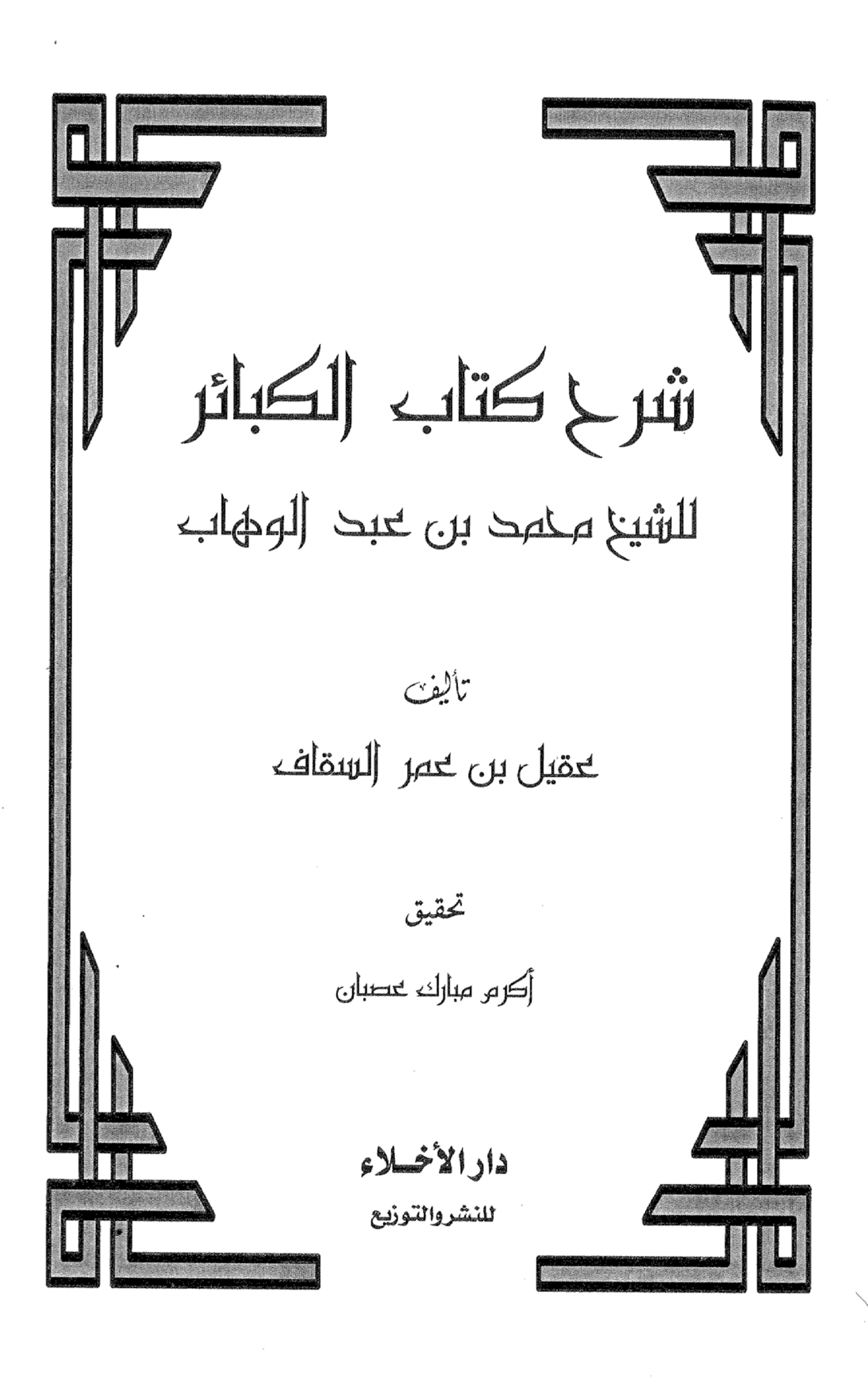
دار الأخلاء للنشر والتوزيع

اليمن - حضر موت - المكلا

٤٠ شقة على طريق فوه مقابل مستشفى الأمومة والطفولة

E_mail: Salim_bareak@yahoo.com

Salim_bareak@hotmail.com



شرح كتاب الكبائر

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

تأليف

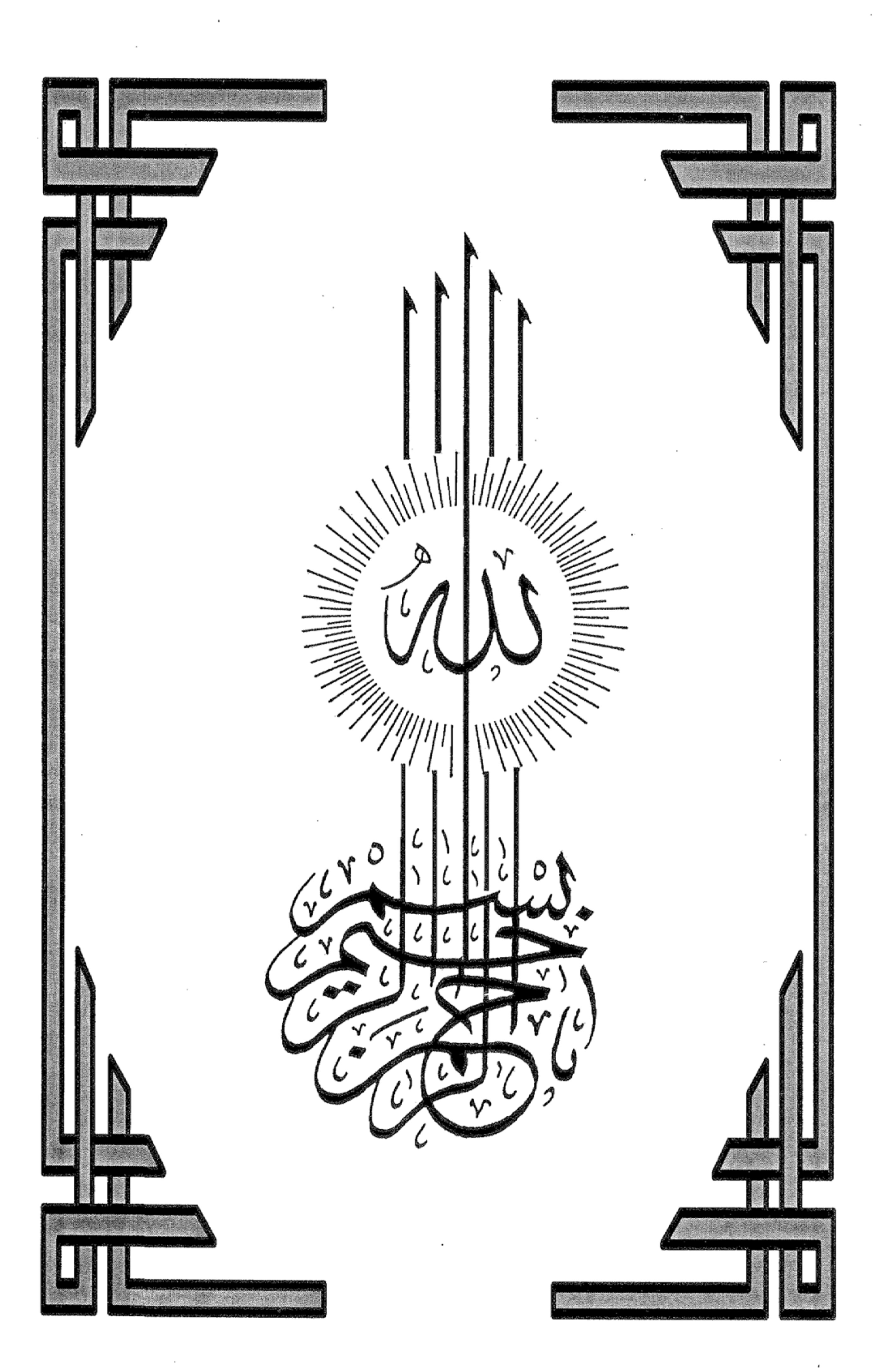
عقيل بن عمر السقاف

تحقيق

أكرم مبارك عصبان

دار الأخلاء

للنشر والتوزيع


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

ذكر الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء عن محمد بن عبادة المعافري قال: (كنا عند أبي شريح رحمه الله فكثرت المسائل، فقال: قد درنت قلوبكم، فقوموا إلى خالد بن حميد المهري استقلوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة، وأقلوا المسائل، فإنها في غير ما نزل تقسي القلب، وتورث العداوة) اهـ[1].

وأبو شريح هو أبو شريح عبد الرحمن بن شريح المعافري الإمام القدوة توفي سنة (١٦٧هـ) واشتهر بالعبادة أيضاً، ولكنه حين كثرت في مجلسه المسائل التي تورث القسوة فزع وانتفض، وأمر طلبته وأصحابه أن ييمموا وجوههم شطر خالد بن حميد المهري الذي عرف بالزهد، ليأخذوا عنه الرقائق والرغائب، ومع أنه من أهل هذه الدائرة، ولكنه يعرف لأهل الفضل فضلهم، وقد علم كل أناس مشربهم.

ومما نستنبطه من هذا النقل أمران: أحدهما: العناية بالرقائق وتزكية النفس، وهو أحد الغايات من بعثته عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة:١٥١]، قال ابن كثير في تفسيره: (وَيُزَكِّيهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودَنَس النفوس وأفعال الجاهلية)[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٨٢).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٤).

وثانيهما: أن نعرج في أخذها على من يحسن أمرها، وكلا الأمرين يوجدان في شرح الكبائر الذي ألفه الشيخ عقيل بن عمر السقاف، والمتن للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ومستند المتن وشرحه على الكتاب والسنة لا يخرجان عنهما، فتمت بذلك النعمة.

وقد عُرِفَ الشيخ عقيل بن عمر بالوعظ، فحين تكون الحوالة عليه في هذا الشأن فإنها على مليء إن شاء الله، ويزداد الفرح به كونه يرجع في أصله إلى بلد حضرموت التي كان ينفر قومها من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كغيرهم ممن راجت عندهم الشائعات في الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فيفرون من كتبه فرارهم من الأسد، وما هذا بمستنكر من أرض شاعت فيها الخرافة، فكان أهلها يتطيرون بالدعوة لتجريد التوحيد، ولم يفرقوا بين الكتب التي تُعنَى بالعقيدة كمؤلفات التوحيد، وتلك التي تهتم بالرقائق ككتاب الكبائر، بل كانت المعاملة على حد سواء.

ولكن المستنكر أن يتوارى منها أيضاً بعض أهل الفضل، وما ذاك إلا بسبب امتلاء قلوبهم بتلك الشائعات المنفرة، وقد صدق من قال:

تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن تشاء قلت ذا قيء الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتريه سوء تعبير

وما ضروا بذلك إلا أنفسهم، فإن التعصب يفوت على المرء خيراً كثيراً، فعن الخطيب قال: (قال لي الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي الصيمري الحنفي توفي (٤٣٦ هـ): سمعت من الدارقطني أجزاء من «سننه»، وانقطعت لكونه ليَّنَ أبا يوسف، وليتني لم أفعل، أيش ضر أبا الحسن انصرافي؟)(١).

وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام، فعلينا أن نناقش أقوال

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٦١٦).

الشيخ ابن عبد الوهاب وغيره الحساب، ليتمحض ويتمحص الصواب، والذي طعن فيه بلا حجة فطعنه في الحجاب.

والشيخ عقيل بن عمر هو من شيعة الشيخ جعفر بن عبد الرحمن السقاف، وكان قد ترك حضرموت مغاضباً لمَّا تراكبت فيها ظلمات الجهل، وحمل العصا على عاتقه حتى ألقاها بصنعاء، وألف فيها كتاب (بغية المريد لسبيل أهل التوحيد).

وقد عاش الشيخ عقيل بن عمر بمكة فأخرج هذا الشرح المبارك وغيره من المؤلفات، ولم يلتفت إلى الألقاب المنفرة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب، ولم يكن في هذا الأمر بدعاً، فقد قام الشيخ محمد بن محسن العطاس بتأليف كتابه (تنزيه الذات والصفات عن أدران الإلحاد والشبهات) وهو ممن عاش بمكة أيضاً في العصر ذاته.

ونسأل الله أن ينفع بهذا التحقيق إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

ترجمة شارح كتاب الكبائر

هو عقيل بن عمر السقاف المكي، كان عالماً فاضلاً عاملاً بعلمه، واشتهر بالوعظ، وأقرّ بفضله علماء عصره، منهم الشيخ عمر عبد رب الرسول، والشيخ محمد صالح ريّس، والسيد أحمد بن إدريس، خلّف أبناء علماء منهم إسحاق الذي تولى مشيخة السادة العلويين، ثم أخوه عبد الله، وقد ذكر زيني دحلان من أخبار ابني الشيخ عقيل واتصالهم بالولاة في مكة شيئاً كثيراً.

توفي الشيخ عقيل سنة (١٢٤٧هـ) بمكة المكرمة وترك مؤلفات منها:

- تنبيه الغافل عن ذكر الموت الهائل.
- مباني أسرار الدين الذي يكون به التمكين والنجاة في يوم الدين.
- قبضة السيف وميزانه المعروف بما يدلّ القرآن وفرقانه.

ومنها كتاب في أسباب إصلاح البيوت، وكتاب في الوصية، وبلوغ المرام فيما يتعلق بخروج المرأة من الأحكام، وتصفية الخواطر بذكر الأربعة الجواهر.

وله رسائل منها رسالة في تعريف التوحيد، ورسالة في شرح لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي، ورسالة تتعلق بصلة الأرحام والأقارب، ورسالة في ذكر وعيد النار لمن عصى الله ووعد الجنة لمن أطاع الله، ورسالة في تعريف المسلم[١].

---

(١) انظر: مختصر نشر النور والزهر لمرداد أبي الخير، (ص٢٣٩)، شمس الظهيرة لعبد الرحمن بن محمد المشهور (١/ ٢٣٣)، خلاصة الكلام لزيني دحلان (ص ٣١٥).

بين يدي التحقيق

يُعدُّ هذا الكتاب شرحاً لكتاب الكبائر الذي ألَّفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي العالم المجدد الذي صنَّف المؤلفات في توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده، ونبذ الذرائع المفضية إلى الإشراك بالله عزّ وجلّ، ولم يألو جهداً في بيان ذلك دعوة وتأليفاً حتى رفع لها رأساً، وانتشرت دعوته في الآفاق فظهر المناوئون له، توفي (١٢٠٦ هـ).

ومن مصنفاته كتاب الكبائر الذي قام الشيخ عقيل بن عمر السقاف بشرحه، وهذه خمس وقفات عند هذا الشرح قبل أن نأتي إليه وهي:

الأولى: أن هذا الشرح ربط بين أبواب المتن حتى جاء بمثابة سلسلة مترابطة، وصار نصاً واحداً يأخذ بعضه برقاب بعض، ومن الصعوبة أن تجعل لفقراته عنواناً، فلا ينتقل إلى باب حتى يربطه بما قبله بأسلوب لطيف، يدل على مكانة الشارح، وامتلاكه نواصي البيان فتأمل مثلاً توفيقه بين ذم الحسد وذم سوء الظن بقوله: (فمن أراد الله به خيراً دلَّه على مجاهدة نفسه بمراقبة الله حتى يذهب عنه الحسد، ويثبت مكانه الود لكل مؤمن بالله، فيحسن الظن ما استطاع ويلتمس له أعذاراً عندما يُرمَى من الحُسَّاد بما ليس فيه).

وإن كان لا يخلو بعضها من نوع تكلف.

الثانية: امتاز شرحه بيسر العبارة، وسهولتها من غير تعقيد، بلغة الوعظ التي ترجى ثمارها، إذ المقصود من وراء ذلك إيضاح ما ورد في متن الكبائر، فاسمع إليه يقول لأهل عصره: (فلو يعظ الواعظ مهما يعظ فما همكم إلا دنياكم، قد بعتم آخرتكم بها...) وكقوله: (فإني ناصح لأهل زماني أن يبادروا إلى التوبة قبل اشتداد غضب الله).

الثالثة: النكير على أهل زمانه ممن يقارفون الكبائر ويغشونها، لا يبالون بالوعيد الوارد فيها، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ ينعي عليهم التهاون في فعلها، وكثيراً ما يوجِّه الخطاب لهم، ويُرجِع الأمراض التي يعاني منها المجتمع إلى عدم المبالاة بفعل الكبائر كقوله: (فكيف إذا كانت الرشوة في الأحكام الباطلة التي هي القوانين المخترعة من ظلمة أمراء الجور المضادين حكم الله).

وتراه دائماً يبدي يد النصح لهم كما في قوله: (فواجب على المسلمين جميعاً أن يسعوا في الصلح بينهم، لكونهم يداً واحدة على الكفار بالله، وأن لا يختلفوا لأجل غرض من الدنيا فتختلف قلوبهم، ويشتت شملهم الله، فإني ناصح لهم، وأريد أن تكون كلمتهم واحدة، ويدهم واحدة قائمين بالقسط شهداء لله، قال تعالى محذراً لهم من أن يشتتوا بالتنازع: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ ﴾ [الأنفال:٤٦] أي: قوتكم ﴿ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦ ﴾ [الأنفال:٤٦].

الرابعة: تقريره لمنهج أهل السنة في الشرح فيما يتعلق بالحكم على أصحاب الكبائر، ومرجع ذلك إلى مسمى الإيمان، فلا يميل مع المرجئة الذين يخرجون العمل عن مسمى الإيمان حتى نفى غلاتهم ضرر المعاصي، كما إنه لا يميل إلى رأي الخوارج في التكفير بالكبيرة، من ذلك شرحه لحديث أبي هريرة عند مسلم مرفوعاً: «اثنتان في الناس وهم بهما[1] كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت» قال: (المراد بالكفر المذكور هو نقص الإيمان بالله، ولو تكامل إيمانهم بالله لأيقنوا أنه لا عز إلا بالله، فلما شكُّوا في ذلك ما تركوا الطعن في النسب ولا النياحة على الميت).

(١) لفظ الصحيح: «اثنتان في الناس هما بهم...».

ومما يوضح منهجه السليم مخالفته الخوارج الذين يرون تخليد أهل الكبائر ما أورده بعدما ساق جملة من الأحاديث التي تفيد عدم دخول الجنة لمرتكبي الكبائر كحديث: «لا يدخل الجنة قاطع» من قوله: (أي: إنه يعمل لها عملاً صالحاً يترجاها به حتى يغلب على سوء ما عمله مما يوجب نار الله، فمن مات وهو على وزن حبة من عمل صالح فلا بد من دخوله ولو بعد حين جنة الله، فكل ما ذكر من عمل سوء يوجب نار الله، ثم يكون بالعمل الصالح الخروج من النار، ولا يخلد فيها إلا الذي ليس في قلبه مثال ذرة من إيمان بالله).

نعم وردت في بعض المواضع إطلاقه الخلود وسلب الإيمان أو نزعه عن مرتكبي الكبائر فينبغي أن يحمل المطلق على ما قيده، كما يحمل المجمل على ما فصّله.

الخامسة: اعتماده في الشرح على الكتاب والسنة، وما أجمل أن يستند الواعظ عليهما، ولكن الشيخ عقيل لم يتحرَّ في بعض الأحاديث الصحة اغتراراً بما ورد في مسند الفردوس للديلمي، ومعاجم الطبراني الثلاثة وغيرها من المتون التي لم يشترط أصحابها الصحة، وكذلك ينقل عن الجامع الكبير للسيوطي وغيره، ولا يحمل صنيعه هذا إلا على ذلك –أعني: اغتراره بورود الحديث فيها– لأنه يقول في الشرح: (فكم من أناس تكبروا على الحق حتى افتروا الأكاذيب في مجادلتهم بالباطل، واحتجوا له بأحاديث مفتراة فيها الكذب على رسول الله، فيا ويلهم حين يحشروا[1] إلى ربهم مسودة وجوههم، ومساقين إلى نار الله، روي في الصحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

وللأسف أن الشيخ عقيلاً قد حطب في شرحه بليل، وأورد ما لا يصح عن رسول الله

---

(١) الأصح: يحشرون.

ﷺ، وكان قد وسعه ما وسع صاحب المتن، ويكثر من صيغة التمريض التي تدل على ضعف الحديث مع كونه صحيحاً.

وقد يقال: إنه يعمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال عند بعض العلماء، فله في ذلك مندوحة، فنقول: ذاك صحيح لو التزم بالقيود التي اشترطوها في ذلك، فالذين يرون العمل بالحديث الضعيف أضافوا ثلاثة شروط إلى كون الحديث الضعيف في القصص أو المواعظ أو فضائل الأعمال دون العقائد والأحكام كما قال السيوطي في ألفيته:

فِي الْوَعْظِ أَوْ فَضَائِلِ الأَعْمَالِ لا الْعَقْدِ وَالْحَرَامِ وَالْحَلالِ

والشروط الثلاثة هي:

١ - أن يكون الضعف غير شديد، فلا يكون الحديث منكراً أو في إسناده متهم بالكذب.

٢ - أن يندرج تحت أصل معمول به، فلا يكون أصلاً في بابه.

٣ - أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته بل يعتقد الاحتياط، وأن يبين ضعفه عند روايته.

ولم يراعِ الشيخ عقيلاً هذه الشروط لا سيما الأول، فأورد ما اشتد ضعفه بل وما في إسناده وضاع وكذاب كما نبهت عليه في التحقيق.

هذا ما أردنا تلخيصه من وقفات توضح مميزات الشرح، وما يسعنا إلا أن نتحرى ما ذكره الشارح في خاتمة شرحه للكبائر من قوله: (رحم الله امرأ أذعن لما ذكر فيها من الحق وقيوده، وترحم على من ألَّف ما فيها من متن، وعلى من شرح ما يعضدها من آية وحديث، وقيد ووعد ووعيد، ووكل سريرة الماتن والشارح إلى الله، فإنه الرقيب والمحاسب والحفيظ على كل عامل عمل).

مخطوطات الكتاب

هناك مخطوطتان اعتمدت عليها في التحقيق، وهي من مخطوطات جامعة الرياض:

١- ورقمها (٦٥٤) وهي نسخة حسنة، خطها نسخ معتاد، جاءت في خمسين ورقة، ٢٢ × ١٦ سم، كتبت في القرن الثالث عشر الهجري تقريباً.

٢- ورقمها (١٣٦٢) وهي نسخة حسنة أيضاً، وخطها نسخ معتاد، جاءت في ثلاث وستين ورقة، ٢٢ × ١٦ سم، وكتبت في القرن الثالث عشر الهجري تقريباً.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة في شرح متن تعريف الكبائر

(ش) روى أحمد ومسلم والترمذي أنه ﷺ قال: «أيها الناس! إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون:٥١] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب! يا رب! ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك»[١].

فيا أيها الناس! أصغوا لقول نبيكم فيما يدلكم عليه من بيان ما يقربكم إلى الله، فإن أنتم فعلتم الصالح من العمل رزقتم حلالاً طيباً، يورثكم جنة الله، وإن أنتم فعلتم الخبيث من العمل رزقتم حراماً مخبثاً، يورثكم نار الله، فإن الله لا يقبل عمل امرئ أكل حراماً، ولا يستجيب له دعاءه حتى يتوب إلى الله، فما دام مُصِرّاً على أكل الحرام لم يوفق لعمل صالح، ولا ينتفع بقول: لا إله إلا الله، فإن شرط قولها العمل بمقتضاها من اجتناب النواهي، وامتثال الأوامر، فإذا لم يفعل كان متكبراً على أحكامها، وشاكاً في وعيد الله.

فمن أحكامها الناشئة من الإخلاص فيها الإحجام عما حرم الله. روى الخطيب أن النبي ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة، قالوا: يا رسول الله! فما إخلاصها؟ قال:

---

(١) رواه مسلم (١٦٨٦) والترمذي (٢٩١٥) وأحمد (٨٣٣٠).

أن تحجزكم عما حرم الله عليكم»[(١)].

ويعضد ما ذكر في الحديث قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ [الأعراف:٢٠١] أي: تائبون منه إلى الله. وقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت:٤٥] أي: أكبر إنهاءً عن الفحشاء والمنكر مراقبة لله وقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة:١٥٢].

فمعلوم أنه من ذكر الله بطاعته ذكره بمغفرته، ومن ذكر الله بمعصيته ذكره بمقته، ولا تبديل لحكمة الله، روى الحاكم أنه ﷺ قال: «إذا قلت: سبحان الله فقد ذكرت الله فذكرك، وإن قلت: الحمد لله فقد شكرت الله فزادك الله، وإن قلت: لا إله إلا الله فهي كلمة التوحيد التي من قالها غير شاك ولا مرتاب ولا متكبر ولا جبار أعتقه الله من النار»[(٢)].

فعُلِمَ من الحديث أن قيود كلمة التوحيد أربعة: اليقين بها، وعدم التردد في وعدها ووعيدها، والتواضع لأحكامها، والعدل بجريان أحكامها فيما شجر بين الناس، وتجعل القوي والضعيف سواء في حكم الله. فإذا لم يفعل ذلك تزايد الشك والارتياب، والكبر والتجبر على قدر الإصرار على معاصي الله وهي كثيرة: منها الكبير، ومنها الصغير.

---

(١) أخرجه الخطيب عن أنس (١٢/ ٦٣) والطبراني في الأوسط عن زيد بن أرقم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣): (وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضَّاع).

(٢) رواه الحاكم في تاريخه عن الحكم بن عمير الثمالي.

ورواه ابن جرير تفسيره (١/ ٦٠) قال: حدثني سعيد بن عمرو السَّكُوني، قال: حدثنا بقية بن الوليد، قال: حدثني عيسى بن إبراهيم، عن موسى بن أبي حَبيب، عن الحكم بن عُمَير - وكانت له صحبة - قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فقد شكرت الله، فزادك».

وإسناده ضعيف وبقية مدلس قد صرَّح بالتحديث، وعيسى بن إبراهيم القرشي منكر الحديث، وموسى بن أبي حبيب ضعيف وخبره ساقط.

باب في ذكر ما يكفر الصغائر

والإصرار على الصغير منها يصيره كبيراً عند الله، فمن اجتنب الكبير منها كفَّر الصغير منها له، وهو الذي لا إصرار عليه منه خوفاً من مقام الله.

قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء:٣١].

ففهم من الآية أن من لم يجتنب كبائر ما نهى عنه لا يكفر عنه صغائر ما ارتكبه من معاصي الله، فلا بد أن يؤخذ بالكبائر والصغائر، وهو تحت مشيئة الله ما عدا المكفرات منها فإنها مما لا يغفرها الله.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم:٣١-٣٢].

وهي الصغائر التي تُكَفَّر باجتناب كبائر ما نهى الله، والكبائر كثيرة قد عُدَّت إلى سبع مائة، وهي متفرعة من السبع الموبقات في نار الله.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب»[١]. ولما روى البخاري ومسلم عنه قال: هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنها لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار[٢].

---

(١) تفسير الطبري رقم الأثر (٩٢١٢).

(٢) لم يروه البخاري ومسلم وإنما أورده الطبري أيضاً في تفسيره وفي كتاب الكبائر (وله عنه) أي: لابن جرير عن ابن عباس.

(ش) فأكبر الكبائر الإشراك بالله، فمن مات عليه كان مخلداً في نار الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وروى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور.. ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»(١).

فما كرر القول في الزور إلا لكونه قرن مع الرجس في عبادة غير الله، فعادل ذنب شهادة الزور ذنب عبادة الأوثان، وما يشاكلها فيما يعبد من دون الله، فقد روي أن: «شاهد الزور مع العشار في النار»(٢).

وفيه أحاديث بكثرة، وفي العشار أيضاً، وهو المكّاس الساعي بالفساد في أرض الله، فإن من سعى بالفساد فيها ارتكب آثاماً كثيرة تحبط عليه كل عمل قصد به وجه الله، فيفسد حتى يسري الفساد في جميع أعضائه، فلا ترى ساعيته إلا في معاصي الله، فلا ينظر الله إليه إلا بعين السخط، ولا يزكيه وله عذاب أليم يوم يلقى الله، فإن الله لا ينظر بعين رضا إلا لمن صلح قلبه حتى صلحت له جميع أعضائه، فلا ترى إلا ساعيته في طاعة الله.

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات والأدب ومسلم في كتاب الإيمان .

(٢) أخرجه الديلمي (٢/ ٢٢٩) عن المغيرة بن شعبة. قال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٨/ ٢١٨) بأنه باطل، وانظر: ضعيف الجامع (٣٣٧٩).

باب في ذكر ما يفسد القلب ويصلحه

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وفي آخر حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[١].

(ش) فيعلم فساده بفساد الأعضاء الساعية في الأرض بمعاصي الله كما قال: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر» كما قاله رسول الله[٢].

باب في ذكر الكبر وأنه من أضر الفساد الموجب الإبعاد

فرداء فساد القلب الاختيال والافتخار والتكبر على أحكام الله، قال الله تعالى: ﴿ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء:٣٦] فمن لا يحبه مولاه كانت النار مثواه، قال تعالى: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النحل:٢٩]. روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. فقال رجل: يا رسول الله! إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟! قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس»[٣].

---

(١) الأول حديث أبي هريرة رواه مسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٥٦٤) وأحمد (٣/ ٥٣٩).

والثاني حديث النعمان بن بشير رواه البخاري في كتاب الإيمان والبيوع، ومسلم في كتاب المساقاة.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» وفي «الأوسط» من حديث جندب بن سفيان مرفوعاً، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٤١٠): ضعيف جداً.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان رقم (٩١).

أي: رده على من قام به، أو أمر به، أو دعا إليه ولم يجب، فمن بطره لإيثار قانونه عليه المخالف لشرع الله، وغمط الناس: أي احتقارهم إذا تمسكوا ظاهراً بأحكام الله.

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر»[١].

أي: الساعي بالفساد، والعاتي بقساوة قلبه، وغلاظة قوله وعمله وطمعه في أرض الله، فمَن هذا شأنه تزايد كبره حتى يجعله في أسفل السافلين، في نار الله ولا يُنَجَّى من النار إلا من سعى بالتواضع في الأرض بأحكام الله.

روى أحمد في صحيحه وابن حبان أن النبي ﷺ قال: «من تواضع لله درجة رفعه الله درجة حتى يجعله في أعلى عليين، ومن تكبَّر على الله درجة وضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل سافلين»[٢].

وروى الطبراني أن عمر قال: «إياكم والكبر؛ فإن الكبر يكون في الرجل وإن عليه العباءة»[٣].

---

(١) حديث حارثة بن وهب رواه البخاري في كتاب التفسير رقم (٤٩١٨) والأدب رقم (٦٠٧١) ومسلم في كتاب صفة الجنة رقم (٢٨٥٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده، وابن ماجه في كتاب الزهد رقم (٤١٧٦)، وابن حبان رقم ٥٦٧٨ ، من طريق عمر بن الحارث أن دراجاً حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعد. و دراج بن سمعان أبو السمح قال الحافظ عنه: صدوق ، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط رقم (٤٩٣٧) عن ابن عمر مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات. وتعقَّبه الألباني في السلسلة الضعيفة بأن في سنده سويد بن عبد العزيز، وقد تفرد به وهو لين الحديث ؛ كما في «التقريب» ، بل هو واه جداً ؛ كما قال الذهبي في «الميزان».

(ش) أي: الذي يأنف من قبول الحق قد يكون فقير الحال، وهو يتكبر على أحكام الله فلا يقبله إلا من هو عظيم لربه، أو يخشى منه سطوة تذله في الله، إذ لا يتواضع للحق إلا الذين هم من عذاب ربهم مشفقون، فيظل أحدهم خائفاً من أدنى ذنوبه وعيد الله، فلو يعمل مهما يعمل من طاعة ربه لا يعجبن به، ولا يتكل عليه لوجل قلبه من أن لا يتقبله الله، فيكون ملازماً حالتين: خوفه من القنوط لكونه معجباً بعمله، وخوفه من الأمن من مكر الله، فكلاهما من الكبائر السائقة إلى نار الله.

باب في ذكر معرفة القنوط والعجب وأنهما يوجبان العذاب

روي عن ابن مسعود أنه قال: «الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب» وروي عن أبي بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيراً فقال النبي ﷺ: «ويحك قطعت عنق صاحبك يقوله مراراً، إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل: أحسبه كذا وكذا، وإن كان كذا وكذا، وحسيبه الله، ولا أزكي على الله أحداً»(١).

(ش) فعلم من الحديث أن أخوف ما يخاف على المؤمن السالك مدح أصحابه الذين يتلقون عنه علم الله، فإنه متى ركن إلى مدحهم، واغتر به أحبط عمله الله، ففي ذلك قطع عنقه عن المسابقة إلى مغفرة الله، فيظل متكاسلاً عن مجاهدة نفسه، وهي قدمت له الأمن من مكر الله لا سيما إن قص على الناس قصص مواعظ الله، فإنه يخيل له أنه أفضلهم أو من أفضلهم فيمقته الله.

روى أحمد والبخاري ومسلم عن الحارث بن معاوية أنه قال لعمر: «إنهم ليراودونني على القصص. فقال: أخشى أن تقص فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع عليهم حتى

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات رقم (٢٦٦٢) والأدب رقم (٦٠٦١، ٦١٦٢) ومسلم في كتاب الزهد رقم (٣٠٠٠).

يخيل لك أنك فوقهم في منزلة الثريا، فيضعك يوم القيامة تحت أقدامهم بغرورك»[١].

(ش) فلا يفهم ما ذكر إلا السالك الطريق المجاهد في نفسه به في الله كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن اقتدى بهم في مجاهدة نفسه حتى هدي إلى سبيل الإخلاص لله، فمن لا يقتدي بهداهم كان معجباً بعمله مغتراً بغرور عدو الله، فإنه أكثر ما يغر العاملين بعملهم حتى يعجبوا به ويؤمنوا به مكر الله.

روى البيهقي عن أنس أن النبي قال ﷺ: «لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب»[٢].

(ش) أي: الفرح بالعمل والاتكال عليه، وتعاظم النفس به حتى يأمن به وعيد الله، فلا يخاف من أدنى ذنوبه، ثم من أكبر ذنوبه معتقداً أن حسناته توازن سيئاته وترجح عليها بقوله: لا إله إلا الله، فكم اغتر بهذا النوع كثير من الناس، ولم يشعروا بإحباط عملهم من الله، إذ لا يسلم من شر ما ذكر إلا المخون نفسه في كل عمل قصد به وجه الله، فيراه معللاً بالرياء والسمعة وبين حب الشهرة به في خلق الله، فيظل مجاهداً نفسه لأجل ما اعتلت به من كل عمل داخله الرياء والسمعة حتى يدرك الإخلاص لله، فإذا لم يفعل لم يخرج من دسيستها التي يخيبه بها في الدنيا والآخرة من خبر الله قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:٩-١٠].

فلا خلاص من دسيستها إلا بما جاهدتها على الإخلاص وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠].

---

(١) لم يروه البخاري ومسلم، وإنما رواه الإمام أحمد في المسند رقم (١١١) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن رجاله ثقات.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٧٢٥٥). قال الألباني في صحيح الجامع (٥٣٠٣): (حسن)، وقال الهيثمي (١٠/ ٢٦٩): (رواه البزار وإسناده جيد).

باب في ذكر الإخلاص و الرياء و السمعة

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[(١)].

ورويا أن رسول الله النبي ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» إلى آخر ما ذكر في الحديث، فإن الله يعلم ما أسر من الرياء أو الإخلاص فيجازي به عليها بنار أو جنة على قدر ما بالغ في مراقبته الله أو مراقبته خلق الله[(٢)].

روى الحاكم أنه ﷺ قال: «أول الناس يدخل النار يوم القيامة ثلاثة نفر، يؤتى بالرجل - أو قال بأحدهم - فيقول: رب! علمتني الكتاب، فقرأته آناء الليل والنهار رجاء ثوابك. فيقال: كذبت. إنما كنت تصلي ليقال: أنك قارئ مصلٍّ وقد قيل، اذهبوا به إلى النار. ثم يؤتى بآخر فيقول: رب! رزقتني مالاً فوصلت به الرحم وتصدقت به على المساكين وحملت ابن السبيل رجاء ثوابك وجنتك. فيقال: كذبت. إنما كنت تتصدق وتصلْ ليقال: إنك سمح جواد وقد قيل. اذهبوا به إلى النار. ثم يجاء بالثالث فيقول: رب! خرجت في سبيلك فقاتلت فيك حتى قتلت مقبلاً غير مدبر رجاء ثوابك وجنتك. فيقال: كذبت. إنما كنت تقاتل ليقال: إنك جريء شجاع وقد قيل. اذهبوا به إلى النار)[(٣)].

وروى الطبراني أنه النبي ﷺ قال:»إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقائق رقم (٦٤٩٩) وكتاب الأحكام رقم (٧١٥٢) ومسلم في كتاب الزهد رقم (٢٩٨٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (١ ، ٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠)، ومسلم في كتاب الإمارة (١٩٠٧).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٢٢) عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الذهبي: صحيح.

كل يوم أربعمائة مرة، أُعِدَّ ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد ﷺ: لحامل كتاب الله والمتصدقين في غير ذات الله والحاج إلى بيت الله والخارج في سبيل الله[(١)].

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع أهل الجمع: أين الذين كانوا يعبدون الناس؟ قوموا خذوا أجوركم ممن عملتم له، فإني لا أقبل عملاً خالطه فيه شيء من الدنيا وأهلها»[(٢)].

وروى الذهبي أنه سأل رجل رسول الله: «ما النجاة غداً يا رسول الله؟ فقال: أن لا تخادع الله. قال: وكيف أخادع الله؟ قال أن تعمل بما أمرك الله ورسوله تريد به غير وجه الله»[(٣)].

فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله، وإن المرائي ينادى عليه يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر.. يا فاجر.. يا غادر.. يا خاسر، ضل عملك وبطل أجرك، فلا خلاق اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له يا مخادع.

---

(١) حديث ابن عباس مرفوعاً رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبدالله بن عبدويه عن أبيه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٢): (ولم أعرفهما، وبقية رجاله رجال الصحيح).

(٢) رواه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً. انظر الجامع الكبير للسيوطي (٢٦٩٥).

(٣) ورواه أحمد بن منيع ثنا يزيد، أبنا فرج بن فضالة، عن أبي الحسن، عن جبلة اليحصبي قال: «كنا مع رجل من أصحاب النبي ﷺ فكان فينا حدثنا: أن قائلاً من المسلمين قال: يا رسول الله، فيما النجاة غدًا... قال: فقلت - أو قلنا له-: الله الذي لا إله إلا هو، لأنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو، لأنا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ إلا أن يكون شيئاً لم أتعمده. ثم قال يزيد: وأظنه قرأ آيات من القرآن: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف:١١٠] و﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. انظر: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري (١/ ٦٦).

روى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «أول الناس يقضى عليه يوم القيامة: رجل استشهد، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، فيقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى قتلت. فيقال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: هو جريء فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن فأُتي به، فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، فيقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه. قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»[1].

وروى الترمذي أن معاوية لما سمعه بكى ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [هود:١٥][2].

(ش) فعلم من النص المذكور أن الرياء والسمعة محبطان للعمل وموجبان نار الله، ولا يكونان إلا ممن آثر دنياه على آخرته، حتى ترك مجاهدة نفسه في الله، فإن النفس لا تترك إلا بالمجاهدة المعرفة سبل الله، فمن لا يفعل لإيثار الدنيا على الآخرة كان من الذين قيل فيهم:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (٣/ ١٥١٣) رقم (١٩٠٥).

(٢) قال معاوية: «قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك وقلنا: قد جاءنا هذا الرجل بشر. ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال: صدق الله ورسوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود:١٥-١٦] قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الألباني: (صحيح)، انظر: صحيح سنن الترمذي (٥/ ٣٨٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾ [هود:١٦].

باب في ذكر الفرح المذموم في الأهل الموجب الأمن من الوعيد الموجب النجاة من الهول الشديد

فما أحد باشر الإيمان إلا خاف مما ذكر بأشد الخوف حتى ينقطع قلبه بالمجاهدة في الله، فلا يكون في أهله مسروراً كالكفار الآمنين وعيد الله، بل يكون ملازماً الخوف في الله.

كان ﷺ متواصل الأحزان، وليست له راحة، وكان يحزن كالشن البالي، وقام الليل حتى تورمت قدماه مجاهدة في الله وقال: «إن الله يحب كل قلب حزين» وقال: «عليكم بالحزن فإنه مفتاح القلب»[١]، وقال: «اقرأوا القرآن بحزن وكآبة، فإنه نزل بحزن وكآبة» وقال: «عمل أهل الجنة حزن بربوة، وعمل أهل النار سهل بشهوة»[٢].

---

(١) حديث: «إن الله يحب كل قلب حزين» رواه ابن عساكر وابن أبي الدنيا في كتاب الهم و الحزن عن أبي الدرداء مرفوعاً وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (١٧٢٣) السلسلة الضعيفة (٢/ ٦٠).

وحديث: «عليكم بالحزن فإنه مفتاح القلب، قالوا: و كيف الحزن؟ قال: أجيعوا أنفسكم بالجوع وأظمئوها» رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعا وهو ضعيف أيضاً. انظر: ضعيف الجامع (٣٧٥٩) والسلسلة الضعيفة (٣/ ٦٦٢).

(٢) روى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً: «إن هذا القرآن نزل بحزن فاقرؤوه بحزن»، وروى ابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً: «إن هذا القرآن نزل بحزن وكآبة فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنوا به فمن لم يتغن به فليس منا» ورواه محمد بن نصر والبيهقي في شعب الإيمان وأبو يعلى، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٢٥).

وحديث: «إن عمل الجنة حزن بربوة، وعمل النار سهل بشهوة» رواه ابن سعد عن أبي البحير. انظر: ضعيف الجامع (٢١٨١).

فلا يتعقل ما ذكر إلا المصدق بقول رسول الله ﷺ، فأخبر الله فيمن وصف ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾ [الطور:٢٦-٢٨]، فمن هذا وصفه فلا يكون إلا خائفاً من أدنى ذنوبه أن يؤاخذه به الله كما قال ﷺ: «ليخشين أحدكم أن يؤخذ عند أدنى ذنوبه»[١].

فمتى آمن من الوعيد لم يذكر بهذا الآيات ولا يذكر به لا سيما إن أغرته الدنيا بالخيانة في مال الله، فيكون بمنزلة من قال الله فيهم: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:٤٤] أي: من الخيانات في أمانة الله ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام:٤٤] أي: آيسون من كل خير، فهذه الحكمة لا تبدل فيمن تقدم أو تأخر، فلذلك قال الأخيار لقارون: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص:٧٦] فما اتعظ بقوله: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١] فهو يتجلجل فيها إلى يوم يسحب لنار الله.

وقد جاء في الآثار، وقول العلماء الأخيار النهي عن الفرح أشد النهي، ولكن إذا أصاب العبد خيرٌ فليحمد الله، ويثني عليه، ويكثر من الذكر والصلاة والتطوع والخشوع لله، وليعتقد أن ما أصابه بأمر الله، فإنَّ قياد النعمة الشكر لله عليها، وقد ورد بنص الكتاب العزيز والسنة الشكر قياد النعمة وموجب للمزيد من الله تعالى، فمن أراد المزيد فعليه بطاعة الله، والتسليم لقضاء الله يلزم بالمزيد على قدر تسليمه في قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] فمتى تحقق بالتسليم رغب في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن» رواه أبو داود[٢].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن محمد بن النضر الحارثي مرسلاً، وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (٤٨٧٢) السلسلة الضعيفة (٩/ ٣٥٩).

(٢) رواه أبو داود (١٥٤١) عن أنس مرفوعاً. انظر: صحيح أبي داود للألباني (٤١/٤).

وقد ورد من معنى الحديث أن الهم والغم والحزن مناقضة للإيمان بالقضاء والقدر، لأن القلم جرى بما هو كائن منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، فليعتقد المؤمن أن ما كتبه الله عليه يصيبه، وما لم يكتبه لم يصبه، ومن لم يعتقد ذلك ويستيقنه يقيناً قاطعاً كان من أهل النار كما صححه الحاكم عن ابن مسعود الحديث بطوله[١].

ومن ابتلي بكذا هم أو غم فليقل: «لا إله إلا الله العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم» رواه البخاري ومسلم[٢].

فهذا التذكر المذكور لا يكون إلا ممن تحقق بحقائق الإيمان بالله، أما الغير المتحقق بها فما دأبه إلا التسخط على قضاء الله فيكون كثير المعاصي، وآمناً فيها وعيد الله.

باب في ذكر اليأس من روح الله والأمن من مكر الله

فمن يكون كذلك فهو المؤمن حقاً، وهو المسارع إلى مغفرة الله، ومن لم يكن كذلك فهو المنافق الكثير الكذب والخصام بالباطل الآمن فيهما وعيد الله، فمتى ما أمن فيهما فيئس من روح الله فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون بلقاء الله، فإن المؤمن بلقاء الله يستعد له فيكون ملازماً لطاعة الله، وخائفاً الانقطاع عما وعد الله بوعيد الله في أدنى معاصي الله، فبطاعته لله يترجى رحمة الله بها حتى لا يكون آيساً من روح الله، وبمعاصيه يخاف وعيد الله فيها حتى لا يكون آمناً مكر الله.

فقد روي في الخبر عن السلف أن المؤمن جمع خوفاً وإحساناً، والمنافق جمع إساءة وأمناً،

---

(١) روى الحاكم (٢/ ٥٤٠) عن ابن عباس مرفوعاً: «إن أول شيء خلقه الله القلم فقال له: اكتب. فقال: وما أكتب؟ فقال: القدر. فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة» قال: صحيح ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٥٨٧٠) ومسلم (٦٨ ٧٩) عن ابن عباس مرفوعاً.

فليختر المرء أي الحالتين فإنه يوسم بها في الوعد والوعيد في الله، فأهل الوعد يوسمون بالعمل السيئ والأمن من مكر الله، فلا يبالون بارتكاب الكبائر حتى الشرك بالله فما يتركون شركهم إلا خوفاً من السيف أو من مقت المؤمنين بالله كما قال تعالى في وصفهم مع المؤمنين: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر:١٣] أي: ما عليهم من حق الله، فلو فقهوه لجعلوا أعظم الناظرين إليهم الله، فلا يخافون إلا الله، ولا يرجون إلا الله، ولا يعتصمون إلا بالله، لكنهم ما فقهوا ما ذكر، فجعلوا الله أهون الناظرين إليهم، وما بالوا بوعيد الله، فمَن هذا حاله لا يكون إلا آيساً من روح الله، وآمناً من مكر الله.

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ سئل عن الكبائر قال: «الإشراك بالله والأمن من مكر الله واليأس من روح الله»[١].

(ش) فلا يتصف بما ذكر في الحديث إلا الذي لا يفقه ما عليه من حق الله، فإن حق الله عليه أن لا يراقب إلا هو، ويجعله أعظم الناظرين إليه حتى لا يشرك معه أحداً في عبادة الله، فإذا لم يفعل داخله الشرك في جميع أعماله من صغير وكبير حتى تنزع نفسه وهي مشركة بالله.

روي أنه ﷺ قال: «إن الله ليغفر للعبد ما لم يقع الحجاب. قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: تخرج النفس وهي مشركة»[٢]. فما ذكر في الحديث لا يكون إلا من الذي لم يجعل أكبر همه

---

(١) لم يروه البخاري ومسلم، وإنما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، ورواه البزار. قال الهيثمي (١/ ١٠٣): (رجاله موثقون)، ورواه عن ابن مسعود عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٢٦٠).

(٢) رواه أحمد والبزار عن أبي ذر مرفوعا، قال الهيثمي مجمع الزوائد (٤/ ٤٤١).

(وفيه عبد الرحمن بن ثوبان وقد وثقه جماعة وضعفه آخرون، وبقية رجالها ثقات وأحد إسنادي البزار فيه إبراهيم بن هانئ وهو ضعيف).

الله كما جاء في الحديث: «إن من أصبح وهمه غير الله فليس من الله»[1]، فيرتكب الآثام الكثيرة التي توجب له وقوع الحجاب من الله لا سيما إن اعتقد أنه إن عمل صالحاً خرب حاله عليه، أو ذهبت سلطته المشتملة على المكوس، ومعاصي الله، فهذا هو ظن الجاهلية الظانين بالله غير الحق، المفترين الأكاذيب على الله.

باب في ذكر سوء الظن بالله وحسن الظن بالله

فعلى كل إنسان أن يعتقد أن من عمل صالحاً صلح حاله، وتقوّت سلطته بطاعة الله، وأن من عمل سوءاً مصراً عليه خرب حاله، وضعفت سلطته على قدر ما أساء فيما عند الله، ولا يكون الوصف الخبيث إلا من الذين يظنون ظن السوء بالله، فظنهم السيئ يرديهم حتى يصبحوا به من الخاسرين خير الله، فلا يراقبون الله فيما صنعوه من سيئ أعمالهم، ويزعمون أنهم يحسنون الظن بالله قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فصلت:٢٢].

ولو كان عندهم يقين بما ذكر لجعلوا الله أعظم الناظرين إليهم، وسارعوا إلى مغفرة الله، لكنهم جعلوه أهون الناظرين فباءوا بغضب من الله، فمن هذا حاله فظنه سيئ بربه، وعليه تدور دائرة السوء من الله، لأنه يعتقد الصلاح في سيئ عمله، والفساد في صالح العمل أن لو عمله لله، وكذلك لو قام أحد بصالح العمل ودعي إليه اعتقد أنه مخذول لا ينصره الله، فهذا هو أعظم ظن السوء بالله فيكون من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح:٦].

---

(١) رواه الطبراني عن أبي ذر مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٤٧٣): (وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو متروك).

(ش) فمن كانت عقيدته سيئة فيمن عمل صالحاً ودعي إلى الله كان ممن ذكر في آية الله، وورد في الحديث: «أن أكبر الكبائر سوء الظن بالله»[١].

(ش) فقد شرحت سوء الظن بالله، فاعتقده يا أيها المصدق بقول الله. روي أنه ﷺ قال: «السخي إنما يجود من حسن الظن بالله، والبخيل إنما يبخل من سوء الظن بالله»[٢].

فعلمنا أن حسن الظن بالله يوجب سخا النفس، والمال في سبيل الله، وسوء الظن بالله يوجب بخل النفس والمال، لعدم التصديق بالجزاء الحسن من الله، فإن المصدق بالجزاء الحسن فيما بيديها مع استحقارهما في جنب ما يطلب من الله، فمن وصف بذلك أعطاه الله ما تمنى على قدر ما كان يحسن الظن بالله، فمن لا يفعل إلا الظن السيئ أخَّره الله في الدنيا و الآخرة على قدر ما أساء الظن بالله، روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال قال الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي» زاد أحمد وابن حبان: «إن ظن بي خيراً فله، وإن ظن بي شراً فله»[٣].

(ش) فقد شرحت ما به يكون الخير، وما يكون به الشر، فاعتمده لعلك تتعلق بها ينيلك رضا الله حتى لا تموت إلا على أحسن حال في حسن الظن بالله، روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[٤].

---

(١) رواه الديلمي وابن مردويه عن ابن عمر. قال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٤١١): (إسناده ضعيف). وانظر: كشف الخفاء (١/ ١٧٦).

(٢) رواه أبو الشيخ عن أبي أمامة مرفوعاً. انظر: كنز العمال (٦/ ٣٩٢)، والجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٣١٠٣).

(٣) رواه البخاري فقي كتاب التوحيد رقم (٧٥٠٥) ومسلم في كتاب الذكر (٤/ ٢٠٦٧) رقم (٢٦٧٥). والزيادة رواها أحمد في المسند (٩٠٦٥) من طريق ابن لهيعة، وابن حبان في صحيحه (٧١٦)، والطبراني أيضاً رقم (٣٩٦). قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٠٧) بأن إسنادهما صحيح.

(٤) رواه مسلم رقم (٢٨٧٧) عن جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول، وذكر الحديث... ولم يروه البخاري، وفيه عن أبي هريرة مرفوعاً يقول الله: «أنا عند ظن عبدي بي».

باب ما يعرف بالعلو و الفساد في الأرض و المخرج منهما بحب الصلاح وأهله و العمل به لله

فمتى صح في أحد حسن الظن بالله عُدَّ من الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وكانت له العاقبة الحسنى من الله، وإذا لم يصح في أحد حسن الظن بالله عُدَّ من الذين يريدون العلو في الأرض بالفساد، لأمنه فيه وعيد الله، فعلى قدر حسن الظن بالله في أحد يكون إصلاحه في أرض الله، وعلى قدر سوء الظن بالله في أحد يكون إفساده في الأرض حتى يؤخذ بقارعة الله قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص:٨٣].

(ش) فمن أراد أن يكون قوياً في حسن الظن بالله فعليه أن يصادق من قام قانتاً لله، فيحب له الخير كما يحبه لنفسه، ويبذل له معروفه وينصره على من يعاديه في الله.

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

(ش) ولا يتأتى لأحد الحب المذكور بصنع ما ذكرنا إلا إذا جعل هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ روي أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[٢].

(ش) أي: القرآن يحكمه على نفسه وعلى من يتحاكمون عنده في الله. قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩]

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان رقم (١٣)، ومسلم الإيمان رقم (٤٥).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة رقم (١٥)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢)، والنووي في الأربعين، وذكر ابن رجب في شرحه أن في إسناده نعيم بن حماد وهو ضعيف، وهو ما يشعر به صيغة التمريض بقول المؤلف: روي.

باب في ذكر ما يوجب العداوة و البغضاء

(ش) فما يصنع ما ذكر ويعتمده إلا المحسن الظن بالله، أما المسي الظن بالله فلا يصنعه ولا يعتمده، ولا يرى إلا ساعياً بالفساد في أرض الله، فيحب الجور وأهله، ويبغض العدل إذا حكم به من قام قانتاً، فيعاديه فيه، ومن تبعه حتى يحب أن تشيع الفاحشة فيه، ويبغضه أهل زمانه ليعلوا بباطله فيهم، ويدحض به حجة الله قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور:١٩].

باب في ذكر موادة أعداء الله من كفار وعصاة وبغضهم في الله

فمن وصف بذلك فلا بد أن تدحض حجة باطله، ويعلو عليه المسلم وجهه إلى الله، وهو المحسن لله في عمله، الناصح لله ورسوله بعلم الله، فلا يرى إلا موالياً حزب الرحمن القائمين بالقسط شهداء الله، فهم في قوله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:٢٢] أي: خالف أمر الله حتى تعدى به حدود الله ﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة:٢٢] فيبغضونهم في الله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] أي: لإنكارهم به المنكر لله ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة:٢٢] أي: يكون لهم التأييد بالنصر من الله، وهو في قوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج:٤٠-٤١].

فمن لا يفعل ذلك عُدّ من الذين استحبوا الكفر على الإيمان، واستحبوا المعاصي على الإحسان لله لا سيما إن كان في قوم فيهم اتباع الأهواء، ويعسر عليه مقاومتهم بإظهار دين الله

فيقال له ولهم: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة:٢٤] أي: بالعذاب عليهم، وتأييد القائمين بالقسط شهداء الله، فما داموا على فسقهم بكفر أو عصيان لا يهديهم الله إلى خير ينجون به من عذاب الله، إذ ما ينجي من عذاب الله الدنيوي والأخروي إلا الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا على طاعة الله، فعلامتهم أنهم لا يركنون إلى الذين ظلموا أنفسهم بكفر أو بعصيان خوفاً من أن تمسهم نار الله، فنار الله في الدنيا الإصرار على المعاصي مع كتمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيها حتى تأتي قارعة الله، ونار الله في الآخرة الجزاء على الإصرار الذي أخذ به أهله الراكنون إليه والحاكمون به على خلق الله.

فمن أراد النجاة من نارهم المعدودة لهم في الدنيا والآخرة فلا يميل إليهم كل الميل، ولا يصاحبهم إلا لضرورة الحاجة المرخص فيها من شرع الله، فإن لا يفعل إلا الميل الكلي بالمحبة والمودة كان منهم، وحشر معهم يوم الله، فإن المرء يحشر مع من أحب ولا تبديل لحكمة الله روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «المرء مع من أحب»[1].

فيا طوبى لمن والى أهل الحق حتى عُدّ منهم، وحشر معهم إلى جنة الله، ويا ويل لمن والى أهل الباطل حتى عد منهم، وحشر معهم إلى نار الله، فإن النبي ﷺ قال: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة»[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب رقم (٦١٦٨، ٦١٦٩)، ومسلم في كتاب البر والصلة رقم (٢٦٤٠) عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) رواه الطبراني عن سلمان وعن قبيصة بن برمة وعن ابن عباس. قال الألباني: (صحيح). انظر: صحيح الجامع (٢٠٣١).

قال: «كونوا من بني الآخرة، ولا تكونوا من بني الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها في الدنيا وأبناؤها في النار»[1].

ونحو ذلك كثير مما قاله رسول الله ﷺ، فيقطعون بها من أمر الله بموالاته، ويصلون بها من أمر الله بقطعه فلا يمتثلون لقوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

(ش) فمتى والوا الكفار والوا المصرين على معاصي الله فإنهم أمروا ببغضهم وعداوتهم حتى لا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون شدة الوعيد فيها من الله، روي أنه ﷺ قال: «تقربوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، والقوهم بوجوه مكفهرة، والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقربوا إلى الله بالتباعد منهم» رواه ابن شاهين[2].

وقد أجمعت الأمة رحمها الله على عداوة أعداء الله، والتصريح بها، والكفر بما هم عليه من الشرك، والأحوال والأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة حتى يؤمنوا بالله وحده ويتركوا ما هم عليه من الكفر، فإذا فعلوا ذلك ووافقوا الشريعة في كل ما جاءت به، صاروا عضواً من أعضاء الإسلام.

---

(١) روى الطبراني في الكبير عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك، قادر يحق الحق ويبطل الباطل، أيها الناس كونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها ولدها».
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٤٦): (فيه أبو مهدي سعيد بن سنان، وهو ضعيف جداً).

(٢) رواه ابن شاهين في الأفراد عن ابن مسعود. انظر: ضعيف الجامع (٢٤٧٣).

باب في ذكر ما يوجب قساوة القلب وما يوجب رقته

(ش) فهذا المذكور المجمع عليه تقام به أحكام الإسلام، وبغيره لا تكون لأهله إلا الفساد والعلو به في الأرض، فعلامة أبناء الدنيا أنهم يؤثرون أحكام الهوى على أحكام الله، فتقسوا قلوبهم بذلك فلا يأمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر في الله فيكون بذلك نقض العهد، وخلف الوعد، وافتراء الكذب على الله، فتنزل عليهم اللعنات على قدر فسادهم بذلك في أرض الله، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة:١٣].

(ش) أي: يؤولونه على غير تأويله، ويقولون: هذا حكم الله ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣] فكما حصل فيمن تقدم ما ذكر يكون نظيره في شرار أمة رسول الله فإنه قال: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» رواه الحاكم بإسناد صحيح[1].

فقد حصل ما ذكر في الحديث، وامتلأت الأرض جوراً وظلماً بأهل المنكر الباغضين مظهر دين الله، فعسى الله يظهره بأهل العدل القائمين بالقسط شهداء الله، وهم الذين يتبعون أحسن الحديث الذي هو كلام الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٢٣].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس مرفوعاً. قال الذهبي: صحيح.

قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ٤٢٢) رقم (١٣٤٨): (تنبيه: قوله: «أمه» هو الصواب، ووقع في مستدرك الحاكم «امرأته» بدل «أمه» وهو خطأ من أحد رواته أو نساخه. فاتني أن أنبه عليه في صحيح الجامع).

(ش) فلا يكون همهم ولا ذكرهم إلا هو، ولا يكون حكمهم إلا به، راجين أن يكون قائداً لهم إلى جنة الله، فتقشعر جلودهم عند ذكره عظمة لإنذاره، وتلين قلوبهم عند بشائره مكثرة الذكر لله.

فمتى صح ما ذكر فيمن قام بالدين اليوم فقد آن لهم أن تخشع قلوبهم لذكر الله، قال تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد:١٦] فهم الذين يحلو لهم ما نزل من الحق، ولا يتبعون غيره خشعاً به لله، وهم الذين إذا استرحموا رحموا، وإذا استغفروا غفروا، راجين بذلك الرحمة والغفران من الله، روى أحمد والترمذي أنه ﷺ قال: «ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»[١].

(ش) فمن لم يكن على نحو ما ذكر في الخبر فهو معدود من أهل الأقماع بالقول، الغير عاملين به لله، فيقمعون غيرهم بالمواعظ، ولا ينقمعون بها، ولا يرون إلا مصرين على معاصي الله، فيكثر كلامهم فيما يؤول إلى الدنيا، وليس لهم ذكر إلا هي، لحبهم إياها وإعراضهم عما يؤول إلى الآخرة، ناسين لقاء الله، روى الترمذي أنه ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[٢].

فواجب على كل مكلف أن يحذر مما ذكر في الحديث أشد الحذر لكونه مبعداً من رحمة الله، فعلامة الذي لا يحذر منه أن يكون شديد الغلاظة على الناس بأحكامه الجائرة، وليست

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعبي، ووثقه ابن حبان) وقد صححه الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة رقم (٤٨٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٤١١) عن ابن عمر مرفوعاً. وهو ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة رقم (٩٢٠)، ضعيف الجامع (٥٦٢٦).

عنده رحمة على خلق الله. روى أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال: «من لم يرحم الناس لا يرحمه الله»[(١)].

(ش) فعلى قدر غلاظة قلبه وعمله فيهم بالجبروت تتنزل عليه لعنات الله، فيقفل الله على قلبه حتى لا يفقه الحق، ولا يرحم به من استرحمه لله، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام:٢٥].

(ش) أي: سداً، فلا يسمع موعظة من عالم نصح لله، بل يتأذى بموعظته حتى يكاد يسطو به، ويسفره من بلده تكبراً واستكبار عن قبول ما قاله له في الله.

باب في ذكر فتنة القلب وكشف عماه

فطوبى للغرباء الصابرين على أذية أهل زمانهم الحاكمين بالطاغوت على رعيتهم، الآمنين فيه وعيد الله، فإنهم لا بد أن يبتلوا منهم أشد الابتلاء، وهم صابرون على ما فتنوا به منهم إلى أن يفرج لهم الله، قال تعالى: ﴿ الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ [العنكبوت:١-٢] فسنة الله جارية فيمن تأخر كما جرت فيمن تقدم ولا تبديل لسنة الله كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ [الفرقان:٢٠] فمن صبر على ابتلاء الله الجاري على يد الجبارين كانت له العاقبة الحسنى من الله، فلا بد أن يعلو عليهم بالحق ولو بعد حين، وتصير الدولة له ولأتباعه كرامة له من الله، هذا إن قاموا لله قانتين، وقاتلوا أعداء الله، أما إذا خافوا سطوة الجبارين كما خاف قوم موسى لما قالوا: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ [المائدة:٢٢] لم يكن لهم إلا الخذلان من الله، فقد جرت عادة الله أن من لم يصبر على ابتلاء الله من الجبارين حتى تسخط القضاء لم يكن له إلا الخسران المبين من الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١٣) وكتاب التوحيد (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣٠٩) عن جرير مرفوعاً.

يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت:١٠] فهو بمنزلة من قال الله فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج:١١].

فمن لا صبر له على التمسك في دينه مدة معينة إلى موته لا فرج له من الله، بل رجوعه عنه أقرب من التثبت عليه لضجره وانتظاره المظهر به في خلق الله، وإن الصبر من الإيمان في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وبمنزلة روحه التي إذا نزعت منه مات ودفن، وسمي جيفة مبغوضة في الله، فمن لا صبر له لا إيمان له، ولا يشم رائحة الإيمان ولا يذوق طعمه الذي هو الإحسان والعرفان بالله، فمتى صار جيفة كان غيَّاباً نمَّاماً مؤذياً للناس بفحش أقواله وعمله، لا يرعوي إلى شيء من كتاب الله، أما الصابر على التمسك في دينه إذا أوذي لم يؤذ ولم يسع إلا بالإصلاح ما استطاع، والصلح بين من فتنتهم العداوة والبغضاء حتى أصبحوا مترضين عنه في الله، فهو بمنزلة من قال فيه رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1].

باب في ذكر ما ينفع من اللسان وما يضر

(ش) فمن كان على هذا الوصف المحمود مستقيماً عليه،قاصداً به ما بعد الموت كانت له العاقبة الحسنى من الله، فوصف الله أهل هذا الخلق الحميد بقوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣] أي: تواضعاً بالحق ولا ينحازون عنه إلى الباطل خشوعاً لله ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان:٦٣] أي: أماناً منا لكم ولا يريدون فيهم إلا إحساناً يقربهم إلى الله، ووصفهم أيضاً بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص:٥٥].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (١٠) والرقاق (٦٤٨٤).

فلا يتخلقون بأخلاقهم المبغوضة لدى الله، فما سعيهم إلا في التخلق بالأخلاق الحميدة المقرونة بالأقوال الصالحة في الله، فلا يتكلمون إلا فيما يعنيهم، وفيما فيه لهم ثواب عند الله، فما صنعوا ذلك إلا ليقينهم في قوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨] أي: موكل بكتابة أقواله خيرها وشرها ليحاسب عليها يوم يلقى الله، ولذا الأعمال تكتب حتى توزن مع الأقوال، ثم توزن الأقوال في كفة، والأعمال في كفة، وأيهما رجح فالحكم له من الله. روي أنه ﷺ قال: «ما من أحد يموت إلا يوزن قوله ويزن عمله، فإذا كان قوله أوزن من عمله لم يرفع عمله، وإذا كان عمله أوزن من قوله رفع عمله» الرواية للديلمي [١].

فمن رفع عمله سعد، ومن لم يرفع شقي، فلهذا لا يكون عبد صالح لله إلا حاسب نفسه على أقواله، ليعلم أيهما المرجح في إظهار الإخلاص لله، فمتى عرف قوله رجح على عمله مقت نفسه في الله، لأن القول متى رجح على العمل كان صاحبه مرائياً مسمعاً يبتغي بقوله العلو في أرض الله، ومتى ترجح العمل على القول كان صاحبه وقوراً صبوراً مخلصاً لله، فلا يقول إلا خيراً ليغنم به ويسكت عن الشر ليسلم منه، ولئلا يحبط عليه ما عمله لله. روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من كان من بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» [٢].

وروي أنه ﷺ قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» [٣].

فمن باشر الإيمان قلبه بوجود الله، وصدق مقاله في إنجاز وعده ووعيده جاهد لسانه بمراقبة قلبه أن لا يتكلم إلا بما فيه نجاته يوم القيامة، ومن لم يكن كذلك أطلق لسانه فيما

---

(١) أخرجه الديلمي (٦١١١) عن أبي هريرة. انظر: الجامع الكبير للسيوطي (٢١١٥١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٧٥)، ومسلم في كتاب الإيمان (٤٧) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٧٤) والحدود (٦٨٠٧) عن سهل بن سعد مرفوعاً.

تهواه نفسه الأمارة حتى توبقه في نار الله، روي أنه ﷺ قال: «كل يغدو فبائع نفسه فمعتقها – أي: من النار – أو موبقها – أي: في النار –»(١).

إذا كان غدوه فيما فيه سخط الله. روي عن سفيان بن عبد الله أنه قال: «ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه وقال: هذا. كف عليك هذا» هذا حديث حسن صحيح(٢).

عن معاذ قلت: «يا رسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على مناخرهم ووجوههم إلا حصائد ألسنتهم»، وله عن أبي سعيد مرفوعاً إلى النبي أنه قال: «إذ أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان المبتذل له، وتخضع تقول لها: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»(٣).

وروى البخاري ومسلم أن النبي قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له رضوانه بها إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة»(٤).

وروى مسلم أن النبي قال: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل: من ذا

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري مرفوعاً.

(٢) صحيح رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٤١٠)، وابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٧٢)، وأحمد (٣/ ٤١٣).

(٣) حديث معاذ صحيح رواه الترمذي في كتاب الإيمان (٢٦١٦).

وحديث أبي سعيد رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٤٠٧). قال الألباني في صحيح الجامع (٣٥١): حسن.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣١٩)، وابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٦٩).
وانظر: السلسلة الصحيحة (٨٨٨).

الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان، قد غفرت له وأحبطت عمله»[١].

(ش) وروي أن القائل كان رجلاً عابداً، قال أبو هريرة: تكلم بكلمة أوبقت عمل دنياه ودينه[٢].

فعلمنا بنص الأحاديث أن آفات اللسان كثيرة موبقة في أشد العذاب من نار الله، فمن لا يتفطن لذلك اكتسب آثاماً كثيرة لا يعلمها إلا حين تبدو له في حساب الله وهي قد كتبت عليه في ديوان الملائكة الموكلين به من الله، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

باب في ذكر ما يكتب على الإنسان وما له وما عليه

(ش) فمن أيقن قلبه بذلك كيف لا يكف لسانه وجوارحه عن معاصي الله، ولكن على القلوب أقفالها فلا تتفقه ما عليها لله، فلا يسعى إلا فيما يرضيه، ويتجنب ما يسخط قدر طاقته لله لا سيما فيما اشتد التحريض عليه من قول رسول الله. روى البخاري ومسلم أن النبي قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعاً وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[٣].

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٢١).

(٢) يشير إلى ما رواه أبو داود (٤٩٠١) عن أبي هريرة مرفوعاً: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر. فوجده يوماً على ذنب فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيباً. فقال: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً. وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار. قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته».
وصححه الألباني في المشكاة (٢٣٤٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٩٧٥) والاستقراض (٥٩٧٥)، ومسلم في كتاب الأقضية (٥٩٣).

فمن جعل أكبر همه مراقبة الله فيما ذكر خوف العقاب ورجاء الثواب كان من كبار أولياء الله، ومن لا يراقب الله في ذلك حتى تحمل آثاماً كثيرة من ذلك كان من أشر خلق الله، ومن كان بين وبين فالحكم لما ترجح منهما، وهو تحت مشيئة الله، فعلامة من رجح خيره على شره في ذلك يكون حسن الأخلاق على قدر ما راقب الله ذلك على قدر ما يراقب فيه خلق الله، فلا يرى إلا في ثرثرة من الكلام بغير عمل به لله، ويتشدق بأفصح البيان من العلم بأنه على حق وهو بخلافه مرائياً مسمعاً مفترياً فيه الأكاذيب على الله، فإذا تفيهق ببلاغة الناس بأنه على حق ظن الظان فيه أنه مخلص فيه لله، والحال أنه من الذين قيل فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٠٤] أي: كثير الخصام بأنه على حق وهو مسارع فيما يسخط الله. روى الترمذي أنه ﷺ قال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[1].

باب في ذكر أهل التلبيس

(ش) فمن أراد الله به خيراً جاهد نفسه على ما يحبه رسول الله، ومن أراد به شراً ترك نفسه في هواها، وهي متخلقة بالأخلاق المبغوضة لدى الله وهي في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة:٢٠٤] إلى قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة:٢٠٦] أي: يجادل عن نفسه بالباطل ليلبس به الحق، ويقاتل عليه من قاومه فيه لله، ولا يزال يزايد في التشدق بأنه على حق ومن قاومه فيه على باطل إلى أن يؤخذ بقارعة الله، فأهل المظاهر الدنيوية في هذا الخلق الذميم على نوعين في مراقبة خلق الله: فنوع يلبسون في كلامهم

---

(١) حديث جابر مرفوعاً رواه الترمذي في كتاب البر والصلة (٢٠١٨). انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٧٩١).

مع أهل الحق حتى يظنوا أنهم منهم، وما هم منهم لتلاعبهم بدين الله، قال تعالى في وصفهم: ﴿ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ ﴾ [المنافقون:٤] أي: غرة لا تتحمل قواماً في الاختبار حين الاستناد إليها فتسقط بمستندها في مهوى الهلاك لكونهم يحسبون كل صيحة عليهم، أي: من طرف أهل الحق، وطرف أهل الباطل لتلبيسهم في كلامهم لهما، فلا هم من هؤلاء ولا هم من هؤلاء مبغوضين لديهم ولدى الله، فمن كان على هذا الوصف يجب الاحتذار منه في كتاب الله، قال لنبيه: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون:٤] أي: يكونون كثيري الكذب في تلبيسهم الذي يغرون به من لا يعرف الاختبار في الله. ونوع ما همهم إلا المظهر في الناس بفصاحة الكلام ليقال أنه من أعلم العلماء بالله، ولا يكون من ذكر إلا من أبغض الناس إلى الله. روى الترمذي أن النبي قال: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة»[(١)].

(ش) أي: يتفصح بالكلام ويلوي لسانه به ليظن أنه من علم الله، والحال أنه ما قصد إلا إظهار حجته في أهل زمانه ليشهدوا أنه محق فيه لله، فيكون بيانه لهم في منزلة السحر حتى يخيل لهم أنه على حق غير متقول فيه على الله. روى البخاري أنه ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً»[(٢)].

(ش) أي: في منزلته حتى يخيل لسامعه أنه حق، والحال أنه باطل وليس بحق كما هو حال من يتعلم النحو والمنطق والبيان ليظهر بذلك في خلق الله.

روى أبو داود أن النبي قال: «من تعلم صرف الكلام ليصرف به قلوب الرجال والنساء لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود و الترمذي وأحمد. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٦٨).

(٢) رواه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً في كتاب النكاح (٥٠٤٦) والطب (٥٧٦٧).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٥٠٠٦) عن أبي هريرة مرفوعاً. وهو ضعيف. انظر: المشكاة (٤٨٠٢).

باب في ذكر الجدال المذموم

(ش) أي: لا يقبل منه فرضاً ولا نفلاً فيكون في منزلة من لا يجد له إحساناً يدخل به جنة الله، لا سيما إن شقق كلامه بالسجع والشعر ليتعاظم به قدره في أهل زمانه حتى يقال أنه عالم عارف بالله، روى أحمد أنه «ﷺ لعن الذين يشققون الكلام تشقيق الشعر»(١).

باب في ذكر ما يبغض به الفاعل له لدى الناس ولدى الله

أي: كما ذكرنا، وهو اليوم كثير حتى ما عرف به المحق من المبطل، والصادق من الكاذب، ولا الأمين من الخائن إلا أن يختبر في الله، فعلامة المبطل الكاذب الخائن أنه يكون كثير الخصام مع أهل الحق والباطل لأجل يظهر فيهم بما يعلمه عليهم، ولو كان يغضب الله. روي أنه ﷺ قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»(٢).

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «كفى بك إثماً أن لا تزال مخاصماً»(٣).

(ش) أي مجادلاً بحق وبباطل، ومعاداة ليقيم حجته، ولا يقبل منه حجة بعدل تدحضها تكبراً على علم الله، فيكون بذلك عياباً نماماً فحّاشاً حتى يتركه الناس اتقاء فحشه وتكبره واستنكافه عن قبول ما فيه الحق الواضح من الله. روي أنه ﷺ قال: «إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه»(٤).

---

(١) رواه أحمد في المسند، ورواه الطبراني في الكبير عن معاوية مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٤٧): (وفي رواية: «الذين يشققون الخطب»).

(٢) حديث عائشة رواه البخاري في كتاب التفسير (٤٥٢٣) والأحكام (٧١٧٨)، ومسلم في كتاب العلم (٢٦٦٨).

(٣) حديث ابن عباس رواه الترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٩٤) وقال: غريب. وفي إسناده ابن وهب بن منبه وهو مجهول. انظر: الضعيفة (٤٠٩٦) وضعيف الجامع (٤١٨٦).

(٤) حديث عائشة رواه البخاري في كتاب الأدب (٣١٣٢،) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٩١).

باب في ذكر ما يعرف به الصادق والكاذب في الكلام

(ش) فما ذكر هو علامة المبطل المخاصم بحجته ليحذره المتمسك بالعروة الوثقى في الله، وعلامة المحق الصادق الأمين أنه يكون قليل الخصام، ومتى عرف الحق أقر له ولو من عدوه، ولا يشهد بالزور على من عاداه فيه، ولو كان مبطلاً يريد ذله في خلق الله، وإذا ألقي عليه باللغو أعرض عنه ليكون متكرماً بالعفو والصفح لله، فلا يسب من سبه، ولا يلعن من لعنه، ولا يفحش فيمن يفحش عليه، لتخلقه بمكارم الأخلاق التي ترضي الله. روى الترمذي أن ﷺ قال: «ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء»[1].

فمتى وجد من هو متخلق بالخلق المحمود المذكور فهو المحق الصادق الأمين العظيم القدر عند الله. روى الترمذي وصححه أنه ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن من حسن الخلق، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء الذي يتكلم بالفحش»[2].

وروى مسلم أن النبي قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[3].

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار، تحرم على كل قريب هين سهل»[4].

---

(١) حديث ابن مسعود مرفوعاً رواه الترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٧٧)، وأحمد في المسند. وهو في السلسلة الصحيحة (٣٢٠).

(٢) حديث أبي الدرداء مرفوعاً رواه الترمذي في كتاب البر والصلة (٢٠٠٢) إلى قوله: «الفاحش البذيء». ورواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٧٩٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٢)، وهو صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٨٧٦).

(٣) حديث عائشة رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٩٤).

(٤) حديث ابن مسعود رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق (٢٤٨٨) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٨).

فلا يتصف بهذه الأخلاق الحميدة إلا من جاهد نفسه عليها ليتخلق بها في الله، ومن لا يفعل تخلق بأضدادها حتى يحرم الرفق بإسرافه في المقال والأفعال والأحوال حتى يتجاوز بها حدود الله. روى مسلم أن النبي قال: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»[1].

(ش) أي: لا يهتدي إلى خير ما دام مصراً على إسرافه المجاوز به شرع الله، فيفتري فيه الأكاذيب الكثيرة التي يلعن بها من الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٠٥] فيجره ذلك إلى المعاصي الكثيرة حتى يكفر بالله، لأن المعاصي رسول الكفر الباطني ثم الظاهري إذا قدر صاحبه على إظهاره لعدم خوفه من مقام الله، فما دام خائفاً ممن ينكر عليه فيه كتمه عنه وخادعه بما يهواه حتى لا ينكر عليه في الله، فيكون في منزلة من وصفهم الله بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة:٨-١٠].

باب في ذكر الكذب الموجب نزع الإيمان بالله وفي ذكر الصدق الموجب ثبات الإيمان بالله وأيهما غلب فالحكم له عند الله

فهذا الوصف المذكور كمين في المنافقين، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في الله، والحال أنهم يخدعون الناس بصنعهم الباطل، ويلبسونه بالحق ويجادلون عليه أنهم ما قصدوا إلا الإصلاح به في أرض الله ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ ﴾ [البقرة:١١]. فهذا دأب الأشرار اليوم، ويدعون أنه لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر

(١) رواه مسلم عن جرير مرفوعاً في كتاب البر والصلة (٢٥٩٢).

ليكون المظهر بهما في خلق الله فقال الله فيهم: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة:١٢] أي: بإفسادهم إلا أن يتوبوا أو يحاسبوا فيه من الله، فكلما أملي لهم بإفسادهم ازدادوا تجبراً وعتواً ونفوراً عن قبول الحق والعدل به في أرض الله فيستحقوا كل التوبيخ بقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الجاثية:٧-٨].

(ش) فمن لا يصغى لما ذكر ويوبخ نفسه به وهو متخلق بالنفاق كتب كذاباً عند الله، فتنزل عليه لعنات الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم يبعثه الله[١].

ومن صغى لما ذكر، وجاهد نفسه على التخلق بما يخرجه من الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة كتب صديقاً عند الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»[٢].

وروى مالك أن النبي قال: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب فتنكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين»، وروى أيضاً عن صفوان قال: «قلنا: يا رسول الله! أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم. قيل: أيكون بخيلاً؟ قال: نعم، قيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال لا»[٣].

---

(١) في الشرح قال: (بالنفاق المجوى).

(٢) حديث ابن مسعود رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠٩٤) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٠٧).

(٣) رواهما مالك في الموطأ، فأولهما في كتاب الكلام (١٨) موقوفاً على ابن مسعود.

وثانيهما (١٩) عن صفوان بن سليم وهو مرسل ضعيف. انظر: ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ١٣٨).

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من نتن ما جاء به»(١).

باب في ذكر صفة النفاق وما فيه من البعد و الشقاق

(ش) فمن سمع بهذه الأحاديث المنذرة من الكذب، والمبشرة في الصدق ولم يجاهد نفسه بها استولى عليه الكذب الذي يصيره منافقاً خالصاً عند الله، فيخلف به الوعد، ويخون به الأمانة، وينقض به عهد الله قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧].

روى البخاري ومسلم أن النبي قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» وروي أيضاً أنه ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢).

فمن استولت عليه أحد هذه الخصال الأربع لا يبالي بما هو عظيم من الكبائر عند الله كرمي المحصنات بالزنا، وشهادة الزور، والسعي بمن هو بريء مما رمي به إلى سلطان بدعوى كاذبة تقيم عليه حداً أو أخذ مال أو حبساً أو ضرباً يتحمل وزره يوم الله.

---

(١) حديث ابن عمر رواه الترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٧٢) وهو ضعيف جداً. انظر: ضعيف سنن الترمذي (٤/ ٤٧٢)، الضعيفة (١٨٢٨)، ضعيف الجامع (٦٨٠).

(٢) الأول حديث أبي هريرة رواه البخاري الإيمان (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥)، ومسلم في كتاب الإيمان (٥٩).

والثاني حديث ابن عمر رواه البخاري في كتاب الإيمان (٣٤)، وكتاب المظالم (٢٤٥٩ ـ ٣١٧٨)، ولا يجوز التعبير بصيغة التمريض.

باب في ذكر القول بالظن السيئ

قال تعالى فيمن وصف بذلك: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور:١٥].

(ش) فيجب على من ولي أمراً أن لا يسمع قول من جرب عليه الكذب أو الفسق في رمي أحد بفاحشة متبيناً فيه بقول من جرب عليه الصدق في الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات:٦].

(ش) فكم من أمير سمع إلى قول من جرب عليه الكذب والفسوق فحكم به ثم أصبح نادماً على حكمه لما تبين له كذبه، وتحمل ما يسوؤه يوم حساب الله، بل يجب على كل إنسان أن لا يتكلم بكل ما سمعه فيما فيه ضرر على أحد حتى يتبين صدقه من صدوق في الله، روي أنه ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»[١].

باب في ذكر المزاح المحمود والمذموم والكذب وما يرخص منه

فمن تعقل قول نبيه لا يتكلم إلا بما له من العاقبة الحسنى من الله، سواء صدقه الناس فيه أو كذبوه، لأن مداره فيه على أن يكون صدوقاً عند الله كقول موسى عليه السلام لقومه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [البقرة:٦٧] وهم الذين يفترون الأكاذيب على الله، فبتبرئته من الجاهلين عرفوا أنه ليس بمازح عليهم، وإنه حكم من الله.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً في المقدمة (٥).

وقد يجوز المزاح إذا كان بصدق ولم يكن فيه ضرراً على أحد، ولا استسخار بأحد، ولا احتقاره بين من يؤثر فيهم لله، «كان ﷺ يمـزح، ولا يقول إلا حقاً» وكانت فيـه دعابـة ليألفـه المتلقي عنه علم الله[١].

ولا بأس أيضاً إذا اضطر إلى الكذب في صلح بين المسلمين أن يقوله على قدر الرخصة فيـه لله، روي أنـه ﷺ قـال: «لـيس الكـذب الـذي يـصلح بـين النـاس فيقـول خـيراً أو ينمـي خيراً»[٢].

وروى مسلم أنه ﷺ لم يسمعه أحد يرخص في شيء مما يقول الناس أنه كذب إلا في ثـلاث، يعنـي: الحر ب، والإصـلاح بـين النـاس، وحـديث الرجـل امرأتـه، وحـديث المرأة زوجها[٣].

وروى أبو داود عن عبد الله بن عامر قال: «دعتني أمي يوماً ورسـول الله ﷺ قاعـد في بيتنا فقالت لي: تعال ها أعطيك. فقـال رسـول الله ﷺ: أمـا إنـك لـو لم تعطيـه لكتبـت عليـك كذبة»[٤].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «من قال لصبي: هاك ثم لم يعطه فهي كذبة»، وروى أحمـد عـن أسماء بنت يزيد قالت: «قلت: يا رسـول الله! إن قالت إحدانا لـشيء تـشتهيه: لا أشـتهيه أيعـد

---

(١) عن أنس مرفوعاً: «إني لأمزح و لا أقـول إلا حقـاً» رواه الطبراني وهـو صـحيح. انظر: صـحيح الجامـع (٢٤٩٤).

(٢) حديث أم كلثوم بنت عقبـة رواه البخـاري في كتـاب الـصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في كتـاب الـبر والـصلة (٢٦٠٥).

(٣) عن أم كلثوم أيضا رواه مسلم (٢٦٠٥).

(٤) حديث عبد الله بن عـامر رواه أبـو داود في كتـاب الأدب (٤٩٩٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٤٧). انظـر: صحيح الجامع (١٣١٩).

ذلك كذباً؟ قال: إن الكذب يكتب كذباً حتى الكذيبة كذيبة»[١].

وروى الترمذي أن ﷺ قال: «ويل للذي يحدث الحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له»[٢].

فيا سامعاً هذه الأحاديث الذامة الكذب كن حذراً من كذبك، وكذب أهل زمانك حتى لا تصاب بالويل المستمر عذابه في واد يهوي فيه داخله سبعين سنة، ثم يصعد فيه ويهوي به خالداً مخلداً إلا ما شاء الله، فلا تدري أنت من المستثنين إذا أتوا بالكذب أم لا، وقد تمتعت بأخلاق الشياطين، وتمتعوا بك، وخف عندك بذلك وعيد الله، ولا تكون حذراً منه إلا إذا تجنبته، وتبت منه توبة نصوحاً، متوفرة الشروط حتى عددت صادقاً عند الله، روي أنه ﷺ قال: «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً»[٣].

---

(١) حديث أبي هريرة رواه أحمد عن الزهري عنه ولم يسمع منه، قال الألباني: (حسن لغيره). انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٧٤).

وحديث أسماء رواه أحمد والطبراني في الكبير في حديث طويل. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٨٢): (وفي إسناده أبو شداد عن مجاهد، قال في الميزان: لم يرو عنه سوى ابن جريج، قلت: قد روى عنه يونس بن يزيد الأيلي في هذا الحديث في المسند فارتفعت الجهالة).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣١٥) وأبو داود في كتاب الأدب (٤٩٩٠) وأحمد (٥/ ٥، ٧) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وهو حديث حسن.

(٣) خلط المؤلف بين عبارتين في حديث واحد وهو «الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» رواه الترمذي عن أبي سعيد مرفوعاً وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث ابن لهيعة) إ. هـ. قَال الحافظ اِبن كَثِير: (لم يتفرد به ابن لِهيعة بل تاَبَعه عمرو بن الحارث ولَكن الآفة ممن بعده، وهذا الحديث بِهذا الإِسناد مرفوعاً منكر) اِنْتَهى.

زاد الحاكم: «والصعود جبل في النار، فيتصعد فيه سبعين خريفاً ثم يهوي وهو كذلك» وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، ووافقه الذهبي في التلخيص.

فمن صدق قول نبيه في وعيد الويل حذر من كل مفسدة ذكر لها الويل في وعيد الله، من ذلك القول بالزور في مدح أحد بما لم يفعله، أو ذمه بما ليس فيه كما هو خلق الأشرار اليوم، ولم ينه عنه أحد في الله، وهو مذهب الدين، ومضعف اليقين، ومورث الشك في وعيد الله، روى الإمام أحمد وأبو داود عن شعبة بن قيس من أسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدث عن عبد الله قال: «إن الرجل يخرج من بيته معه دينه فيلقي الرجل له إليه حاجة فيقول له: إنك كيت وكيت يثني عليه، وعسى أن لا يقوم من حاجته بشيء فيسخط الله عليه، ويرجع وما معه من دينه شيء»[1].

(ش) فمن لا يحذر مما ذكر أشد الحذر ذهب دينه كله، وباء بسخط الله لا سيما المادح نفسه بما لم يفعل ليزكيه سامعه ويمدحه عند أقرانه تصديقاً له، وهو يريد به العلو في أرض الله قال تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٨].

باب في ذكر ذم من يزكي نفسه وإذا كان من شأنه التحدث بنعمة الله

(ش) فقد استولى على الناس اليوم هذا الخلق الذميم، ولم يتحاش عنه إلا من عصمه الله، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء:٤٩] أي: من راقب الله حتى زكاه لا يظلمه في شيء مما قصد به وجه الله، وهو الذي لا يريد جزاء ولا شكوراً في شيء من عمله إلا من الله، فمتى سمع من أحد مذمة أحبها طالباً بها مدحة الله، فواجب على كل من سمع من أحد مدحاً بما لم يفعله أن يبغضه في الله بل وإن فعله وقد داخله شيء من الخلل لئلا يكون معجباً به فيمقته الله، فإن السلف الصالح كان بعضهم يحثو التراب

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١١٨): (رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدهما رجال الصحيح).

على وجه من مدح أحداً منهم في الله، وهم متحققون بما مدحوا به، بل من كل منهم يرى مدح الناس له كرامة من الله وهو في قوله ﷺ: «إذا مدح المؤمن ربى الإيمان في قلبه»[١].

ومع ذلك يخاف أن يكون لا يستحقه فيؤخذ بالعجب الذي يحبط عليه عمله المخلص فيه لله، روى مسلم عن المقداد أن رجلاً جعل يمدح عثمان بن عفان فجثى المقداد على ركبتيه، فجعل يحثو على وجهه من التراب، فقال له عثمان: ما شأنك؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[٢].

وروى في المسند أنه ﷺ قال: «إياكم والتمادح فإنه الذبح»[٣].

(ش) فقد رويت أحاديث كثيرة في النهي عن المدح في الوجه خوفاً من العجب، وزهو النفس، والتعاظم به على ضعفاء خلق الله، ومن ذلك ما هو ملحق بقول الزور والكذب في البيع والشراء، ومدح السلعة بما ليس فيها، ودس الغش فيها، وغير ذلك مما يمقت عليه الله، روى حكيم بن حزام أن النبي ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يفترقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»[٤].

---

(١) رواه الطبراني من طريق ابن لهيعة عن صالح بن أبي عريب عن خلاد بن السائب قال: دخلت على أسامة بن زيد فمدحني في وجهي، فقال: إنه حملني أن أمدحك فيوجهك أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: فذكره، هذا إسناد ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة (٤/ ١٣٧)، وضعيف الجامع (٦٩٥).

(٢) حديث المقداد رواه مسلم في كتاب الزهد (٣٠٠٢).

(٣) حديث معاوية رواه أحمد (٤/ ٩٢، ٩٣، ٩٨، ٩٩) وهو في السلسلة الصحيحة رقم (١٢٨٤).

(٤) رواه البخاري في كتاب البيوع (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨، ٢١١٠، ٢١١٤)، ومسلم البيوع (١٥٣٢).

باب في ذكر ما يمحق من البركة بالكذب

(ش) فقد تخلق أهل كل صنعة اليوم بدس الغش فيها، ولم يبينوها عند البيع لأمنهم فيها وعيد الله، فقليل من يبين عيب صنعته، وهو في حكم النادر الذي يخاف مقام الله، فارتكبوا الآثام الكثيرة بذلك، ومحقت بركة صنائعهم، ويتسلط عليهم فيها من لا يخاف الله، فضرب ظهرهم، وأخذ مالهم، وشتت حالهم، ومزقوا كل ممزق، وباءوا بغضب من الله.

باب في ذكر التحلم بالكذب

ومما هو ملحق بالزور التحلم بالكذب لغرض دنيوي يكون به العذاب في الدنيا بالحرمان منه، وفي الآخرة بالخلود في نار الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «من تحلَّم بحلم ولم يره كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل»[1].

باب في ذكر المخادعة والإرجاف اللذين يمرضان القلب ويورثانه الإتلاف

(ش) وما هو ملحق بالزور مخادعة المؤمنين بكذب القول ولا يفعل، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [البقرة:١٠]، ومما هو ملحق بالزور بل هو أشد منه وزرا من استولى النفاق على قلبه ولا يبالي بالعذاب الأليم من الله، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ ﴾ [البقرة:١٠] الإرجاف في المسلمين بها يورثهم وهناً من عدوهم، وهو لا يصدر إلا من المنافقين أعداء الله، فإذا لم ينتهوا عنه فلا بد أن يسلط الله عليهم المؤمنين القائمين بالقسط شهداء الله، قال تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس في كتاب التعبير (٧٠٤٢). ومذهب أهل السنة أن فاعله تحت المشيئة، وإنما الخوارج والمعتزلة يقولون بتخليد أصحاب الكبائر، فلينتبه لإطلاق المؤلف.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١].

(ش) فمن لا يتحاشى من قول الزور والعمل به استولى على قلبه مرض النفاق الموجب له الحجاب عن رؤية الله. روى الترمذي أنه قال ﷺ: «إذا أذنب العبد ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلوا على قلبه، فذلك الران الذي قال الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين:١٤]»[١].

وروي عن الأعمش أنه قال: أرانا مجاهد بيده قال: (كانوا يرون أن القلب في مثل هذا يعني الكف، فإذا أذنب العبد ذنباً ضم منه، وقال بإصبعه وأخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها، قال: ثم انطبع عليه بطابع، وكانوا يرون أن ذلك الران)، روي عن مجاهد قال: (الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال)[٢].

وروي عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر، وقلب أغلف، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجه فيه نور، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»[٣].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن (٣٣٣٤)، وابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢٤٤)، والنسائي في الكبرى في كتاب التفسير (١١٦٥٨)، وأحمد (٢/ ٢٩٧) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) انظر تفسير ابن جرير الطبري (٥/ ٩٩).

(٣) رواه أحمد والطبراني في الصغير. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣١): (وفي إسناده ليث بن أبي سليم).

(ش) فمن عنده أضعف الإيمان في قلبه فلا بد أن يجاهد به نفاقا في الله، فمتى غلبت مادية إيمانه على مادية نفاقه تخلق بالأخلاق الحميدة المحبوبة لدى الله، فإذا لم يفعل غلبت عليه مادية نفاقه على مادية إيمانه، وتزايدت فيه الأخلاق التي يبغضها الله، فعلامتها أنه لا ينكر قلبه المنكر ومتى باشر أعماله استحبها وواد فيها من يعينه عليها، وبغض من ينكر عليه فيها لله، فمن هذا حاله عد من الهالكين الذين تتنزل عليهم لعنات الله روي عن عبد الله أنه قال: (هلكت إن لم يعرف قلبك المعروف، وينكر المنكر).

باب في ذكر الرضا بالمعصية وذكر مجاهدتها بالطاعة

(ش) فعلامة الهلاك فينا اليوم مرئية بسبب فساد القلوب التي لا تعرف المعروف، ولا تنكر المنكر مراقبة لخلق الله، فمتى أحد منهم قام بهما عادوه فيهما إن كان ضعيفاً، وإن كان قوياً داهنوه، ولم يتركوا منكره لله، وهو قد رضي منهم بالمداهنة، ولم يطرهم على الحق إطراء لرضاه بدنياهم التي تغضب الله، فلا ينفك عنا هذا الهلاك الذي نحن فيه إلا بقيام أناس يكونون على ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ. روي أنه ﷺ قال: «ستكون فتنة. قيل: فما المخرج منها؟ قال: ترجعون إلى أمركم الأول»[1].

فلا مرجع إلى ما أرشدنا إليه نبينا ﷺ إلا بجمعية تريد الدار الآخرة، وتزهد في الدنيا لله، فهي التي تجاهد الذين يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون حباً للدنيا الغرارة بالله، فلا يجاهدهم بلسانه وقلبه ويده إلا مؤمن بالله، ولا يرضى بحالهم ويداهنهم إلا منافق قد أمن بهم مكر الله، روى مسلم أنه ﷺ قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته

---

(١) رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن معاذ مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣٢٨): (وفيه عبد الله بن صالح وقد وثق، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٦٥).

حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»، وله عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» وفي رواية غير الصحيحين بعد وتابع: «فأولئك الهالكون يقولها ثلاثاً»[١].

(ش) فيجب على من عرف من وصف بذلك أن لا يتابعهم إلا في الحق الذي يرضي الله، وأما في المعصية فلا لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[٢].

فمن فعل فقد شاركهم فيما أسخطوا به الله لا سيما إن قاتل معهم الذين عرف منهم الإسلام بتوحيد الله، فما قاتلوهم إلا لأجل أن عصوهم في معصية الله، فكل أبصر بنفسه فيما حكم في قتال من يقاتلهم لأجل بغي أو لأجل كفر بالله، فمتى عرف منهم صحة إسلامهم وجب الكف عنهم لا سيما إن أشهروا بقول: لا إله إلا الله، وكفروا بما يعبد من دون الله، فإن التقاء المسلمين بسيفيهما ذنبه عظيم عند الله. روي في الصحيحين عن أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟! قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»[٣].

---

(١) هذان حديثان في باب ذكر الرضا بالمعصية:

الأول حديث ابن مسعود رواه مسلم في كتاب الإيمان (٥٠).

الثاني حديث أم سلمة رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٥).

(٢) رواه أحمد عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري. انظر صحيح الجامع (٧٥٢٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان (٣١) والديات (٦٨٧٥) والفتن (٧٠٨٣) ومسلم في كتاب الفتن (٢٨٨٨).

باب في ذكر المعصية التي هي الحرص على الرئاسة بمظهر الدنيا المخالف لشرع الله

(ش) فواجب على المسلمين جميعاً أن يسعوا في الصلح بينهم، لكونهم يداً واحدة على الكفار بالله، وأن لا يختلفوا لأجل غرض من الدنيا فتختلف قلوبهم، ويشتت شملهم الله، فإني ناصح لهم، وأريد أن تكون كلمتهم واحدة، ويدهم واحدة قائمين بالقسط شهداء لله، قال تعالى محذراً لهم من أن يشتتوا بالتنازع: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦] أي: قوتكم ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال:٤٦].

فواجب على كلهم أن يصبر بعضهم بعضاً على الحق، والتواصي به لله، فصاحب العلم منهم يقوم بعلمه فيهم، ولا يكتم منه شيئاً خوفاً من أن يلجم بلجام من نار الله، وصاحب المال منهم يسخو بماله، ولا يبخل بشيء مما وجب عليه خوفاً من أن يطوق به يوم يحشر إلى الله، فأهل الخير يقلد بعضهم بعضاً فيما ذكر حتى يصيروا إخواناً رحماء فيما بينهم في الله، وأهل الشر يقلد بعضهم بعضاً فيما هو بضده حتى يصيروا أعداء يتقاتلون على دنيا ترميهم في نار الله، روى الترمذي وصححه أن النبي ﷺ قال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل فيه بعلمه، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فقال: لو كان لي مثل فلان لعملت فيه مثل عمل فلان، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يتخبط بماله ما يدري ما له وما عليه، ورجل لم يؤته الله لا مالاً ولا علماً فقال: لو كان لي مال لعملت فيه مثل عمل فلان. فهما في الإثم سواء»[1].

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣٢٥) عن أبي كبشة الأنماري. رواه ابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢٢٨) وأحمد (٤/ ٢٣٠) وهو صحيح. انظر: تعليق الألباني على الترغيب (١/ ٢٧).

باب في ذكر الريب وأنه لا يضمحل إلا بإيمان الغيب

(ش) فعلمنا أن الناس على نوعين في الخير والشر، فأهل الخير يقلد بعضهم بعضاً في الخير، وأهل الشر يقلد بعضهم بعضاً في الشر كل على قدر ما كسب يوسم به يوم الله، فأكثر الناس اليوم عاشوا على الجهل، فقلد بعضهم بعضاً في الشر، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً في الله، فإن الخير لا يناله إلا الذين تعلموا العلم وقاموا به لله حتى عملوا به لله دخل في قلوبهم الإيمان بالله ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات:١٤] أي: انقدنا لأحكام الإسلام في الله ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات:١٤] أي: لا بد أن يدخل الإيمان فيها بانقيادهم لأحكام الله ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [الحجرات:١٤] أي: لا ينقصهم من الثواب فيها إذا هم أخلصوا لله، ولا يتأتى الإخلاص لله في العمل إلا للذين وصفهم الله بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات:١٥] أي: لم يشكوا في شيء من الوعد والوعيد فيها يوم الله ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات:١٥] ولا يصح لهم الجهاد الأصغر إلا بالجهاد الأكبر الموجب لهم الإخلاص لله ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات:١٥] أي: في إيمانهم الذي باعوا به أنفسهم وأموالهم على الله، فهذا وصف الأخيار الذين قال الله فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة:٤-٥].

(ش) أما وصف الأشرار فإنهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون به لله، نسوا الله فأنساهم ما يصلح لآخرتهم لكونهم ما أيقنوا بوعدها ولا بوعيدها من الله، فهم بمنزلة من قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الجاثية:٣٢].

(ش) فأولئك نطقت ألسنتهم بقولهم: (ما ندري ما الساعة) وأولاء ارتابت قلوبهم فيها كأنهم ليسوا بمبعوثين ولا محاسبين على أعمالهم يوم الله، فاتبعوا الهوى الذي قال الله فيه لداود: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦] فأهل الخير يخونون أنفسهم أن لو ادعت الخير، ويجاهدونها عليه حتى تخلص فيه لله، كقول معاذ رضي الله عنه في مجلسه كل يوم قلما يخطئه: «الله حكم قسط هلك المرتابون»[١]. أي: الشاكون في الوعد والوعيد يوم الله، لخوفه في كل حكم حكَمَ به من الوعيد أقوى من رجائه فيه الثواب من الله.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «رضيت أن لا يكون لي ولا علي وتسلم لي صحبة رسول الله».

وأهل الشر لم يفكروا فيما قدموه لغد وقد أمنوا فيه الوعيد من الله، فعلامة أهل الخير فيما قاله ابن مسعود وهو مروي عن النبي ﷺ: «من اليقين أن لا ترضي أحداً بسخط الله، ولا تحمد أحداً على رزق الله، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله، وإن الله بعلمه وقسطه جعل الروح والفرح والرضا في اليقين»[٢].

أي: فيما أمر الله ونهى، وفيما وعد وأوعد فيهما، فيحرم بأنهما كائنان يوم حساب الله، وعلامة أهل الشر فيما ذكر آخر الحديث بقوله: «وجعل الهم والحزن في الشك السخط».

فلا يرى صاحبهما إلا في هم من رزقه، وتسخط لا يجلبه حرص حريص، ولا يرده كراهة كاره، لما اشتغل بدنياه وأقبل على أخراه خوفاً من مقام الله، ولكن لا يتأتى الإقبال على

(١) صحيح الإسناد موقوف. انظر: صحيح سنن أبي داود للألباني (١٠/ ١١١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٧١): (وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع). وانظر: ضعيف الجامع (٢٠٠٩).

الآخرة إلا من حقق ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»[١].

باب في ذكر السخط للقضاء وذكر ما يوجب الرضا

(ش) أي أنه يرضى بما يقضي الله له، ويرضى بأحكام الإسلام ديناً له، ويرضى بمحمد رسولاً يقتدي به فيما سنه أو أرشد إليه في الله، فمتى تحقق بذلك أمن قلبه حقاً وهدي إلى كل خير يرضي الله، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[٢].

(ش) فلا يرضى ويسلم إلا المتحقق بحقائق الإيمان بالله، أما الغير المتحقق بها ربما يدعي أنه يرضى ويسلم حال الرضا فإذا ابتلي تسخط فيه قضاء الله، روى الترمذي أنه ﷺ قال: «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»[٣].

باب في ذكر القلق والاضطراب وما فيه الطمأنينة ورفع الحجاب

(ش) فلا يعرف صاحب الصدق نفسه إلا عند الامتحان بنزول بلاء الله، فإن تحقق بقوله تعالى فيمن وصف بالرضا: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ [الفتح:٢٦] كأشد وفاء صديقاً عند الله فهو المؤمن حقاً الذي لا يجد في صدره

---

(١) رواه مسلم عن العباس في كتاب الإيمان (٣٤).

(٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيرهما. انظر: تفسير ابن جرير سورة التغابن الآية (١١)، تفسير ابن كثير سورة التغابن الآية (١١).

(٣) رواه الترمذي في كتاب الزهد (٢٣٩٦)، وابن ماجه في كتاب الفتن (٤٠٣١)، وأحمد (٥/ ٤٢٧) عن أنس مرفوعاً. وانظر السلسلة الصحيحة (١٤٦).

حرجاً مما حكم عليه من مر الحق في الله، أما الذي يجد في صدره حرجاً من مر الحق إذا حكم عليه به فهو ناقص الإيمان بالله قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء:٦٥].

فلا أحد يتحقق باطناً بما في الآية إلا إذا جاهد نفسه على ما فيها من الرضا حتى تزكو بصدق في الله، فعلامتها أن تكون مطمئنة بالحق لا تريد سواه راضية بقضاء الله بغير حرج، ولو قطعت به إرباً إرباً فما تزداد به إلا حباً في الله، فمن وصف بذلك كانت نفسه مرضية لدى الله ومعدودة من أولياء الله، فيقال له عند الموت والحشر: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

(ش) فمن أراد أن يدرك هذا الخلق الحميد فعليه أن يجاهد نفسه وأن لا يغضب لحظها صبراً في الله فإنه تملكها بذلك ويعد شديد القوى في التخلق بما يرضي الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «ليس الشديد شديد الصرعة» أي: يصارع الناس فيصرعهم «إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». وروى البخاري أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «أوصني. قال: لا تغضب. فردد مراراً قال: لا تغضب»[1].

فمتى صبر على أن لا يغضب مدة مع امتثال أمر واجتناب نهي تقوى في قلبه الإيمان بالله فيتحقق بوصف ما رواه الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «قد أفلح من أخلص الله قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً، ولسانه صادقاً، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة، وأما الأذن فتسمع وأما العين فمقرة لما يوعي القلب وقد أفلح من جعل الله قلبه واعياً»[2].

---

(١) الأول رواه البخاري في كتاب الأدب (٦١١٤) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٠٩).
والثاني رواه البخاري في كتاب الأدب (٦١١٦).

(٢) رواه أحمد عن أبي ذر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٤٦٢): (وإسناده حسن).

باب في ذكر الجهالة الموجبة للغفلة و الكفر بالله

(ش) فكل ما ذكر في الحديث يدرك بمجاهدة النفس في الله فإن الله قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ [العنكبوت:٦٩] أي: في اتباع أحكامنا ﴿ لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت:٦٩] أي: سبيل الإخلاص والتوكل والرضا والاطمئنان بالله، والذين ما جاهدوا أنفسهم في الله باتباع أحكامه لا يهديهم الله إلى سبل ما ذكر فلا يكون من المحسنين في عبادة الله، فيصيرون في منزلة من قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: الخير الذي يسعدون به أن لو فعلوه لله ﴿ وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: الحق الذي تتلى عليهم آياته من كتاب الله ﴿ وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: المواعظ التي هي عبرة لأولي الأبصار الخائفين وعيد الله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: في تفهم ما يضر وينفع لمباشرتهم ما يقربهم إلى النار بل يخلدهم فيها كالأمن من وعيدها بزواجر آيات الله ﴿ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: عما أرسل إليهم في التبليغ من بيان الوعد والوعيد من الله، لا يتفقه بآياتها إلا الذي سبقت له الحسنى من الله. روي أنه ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(١).

أي: يجعل له قلباً واعياً، وعيناً باصرة، وأذناً سامعةً، فيصير بذلك من أهل لا إله إلا الله، ومن يرد به شراً يجعل له قلباً قاسياً، وعيناً عامية، وأذناً واقرة، فيصير من أهل الإشراك بالله، فتكثر لقلقة لسانه بمقال العلم من غير تحقق به من الله، فلا يشعر بفساد حاله إلا عند موته،

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (٧١) والخمس (٣١١٦، ٣٦٤١) والاعتصام (٧٣١٢) ومسلم في كتاب الإمارة (١٠٣٧) والزكاة (١٠٣٧) عن معاوية مرفوعاً، ورواه الترمذي في كتاب العلم (٢٦٤٥)، وأحمد (١/ ٣٠٦) عن ابن عباس مرفوعاً.

وحين يسأله الملكان عما بلغه رسول الله. روى البراء في حديث له «أن المرتاب هو الذي يقول إذا سأله الملكان: هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته»[١].

باب في ذكر القحة التي هي أخبث الأخلاق عند الله

(ش) فلا يكون هذا الوصف إلا فيمن عاش على مراقبة خلق الله، فما استحسنوه من عمل قلدهم فيه، وتابعهم سواء كان طيباً أو خبيثاً، فمداره على رضاهم غير مراقب فيه رضا الله، فيستخفي منهم في الشيء الذي يستقبحونه، ولا يستخفي فيه من الله، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ [النساء:١٠٨] أي: يضمرون في ليلهم ما يريدون صنعه من معاصي الله.

باب في ذكر حب الشرف الموجب للدين التلف

فالحاصل أن من هذا حاله يكون كثير الخداع والمكر والخيانة في أمانة الله، فلا يستحي من الله في شيء ما، إنما حياؤه فيما تمنعه الناس سواء على طلاح أو صلاح في الله، فمتى ظفر بدنيا يصيبها خادع فيها الصالحين والصالحات وليس متبعاً فيها بحكم الله. روى الإمام أحمد والبخاري وأبو داود أنه ﷺ قال: «أن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فأصنع ما شئت»[٢].

(ش) أي من الأمور التي لا يراقب فيها إلا خلق الله، فلا يكون ذلك إلا ممن استولى عليه الحرص على جمع المال لينال به شرفاً في أرض الله، فلا يزال في مكر وخداع لأجل جمع

---

(١) رواه أحمد وأبو داود. انظر: صحيح الجامع (١٦٧٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) والأدب (٦١٢٠) عن أبي مسعود عقبة بن عامر مرفوعاً.

المال والخيانة فيه حتى لا يبالي بإفساد دينه عند الله، روى الترمذي وصححه أن النبي ﷺ قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١].

باب في ذكر الهلع الذي يقارنه الطمع

(ش) فمن لا يجاهد نفسه على مخرجه من هذا الخلق الذميم يكون من أشر خلق الله، وهو وصف الإنسان الكفور الذي قال الله فيه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾ [المعارج:١٩] أي: طماعاً في جلب المال من حلال أو حرام ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [المعارج:٢٠] أي: إذا أصابته مصيبة في ماله أو جسده أو ولده تسخط فيها قضاء الله ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾ أي: إذا تجمع عنده المال منع ما وجب عليه فيه لله ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المعارج:٢٢-٢٣] الذين جعلوا أكبر همهم الصلاة، وما يوجب قبولها عند الله من ذلك بغض الحرص الذي يصير صاحبه هلوعاً شحوحاً خوفاً من إفسادهما عليهم صلاة الله. روى أبو داود أنه ﷺ قال: «أشر ما في الرجل شح هالع، وجبن خالع»[٢].

(ش) أي: يخلعه من الدين حتى لا ينكر منكراً بقلبه ولا بلسانه ولا بيده خوفاً من أن يشاب فيه، أو يضرب أو يقتل لعدم يقينه فيه بثواب الله.

---

(١) رواه أحمد (١٥٨٢٢)، والترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٥٦٢٠).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الجهاد (٢٥١١) وأحمد (٢/ ٣٠٢، ٣٢٠) عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر: السلسة الصحيحة رقم (٥٦٠).

باب في ذكر البخل

فمن لا يجاهد نفسه على ما يصحح صلاته التي هي قوام دينه استولى عليه داء الشح والهلع والخلع، فلا يبالي بأي منكر ارتكبه آمناً فيه وعيد الله، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارهم»(١).

(ش) فقد ارتكب شرار هذه الأمة كنحوهم، وما استمعوا لوصية رسول الله، فبخلوا بالحق الذي عليهم، واستغنوا برأيهم فيه، وما أعطوه لمستحقه لشكهم في الجزاء الحسن فيه من الله، وأمروا من يصاحبونهم في جورهم بالبخل الذي ربوا عليه، فصاروا بذلك من شرار خلق الله، قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ ﴾ [النساء:٣٧].

(ش) أي: من العلم في بيان الحق والباطل، وفي المال والدين تقدير من ذكر أنهم أشر خلق الله فلا يواسون به سائلاً لحقه، ولا محروماً من حقه، لكونهم حملوه دولة بينهم ابتغاء العلو به في أرض الله، أما أهل الحق فلا يجمعون المال إلا من حله، وينفقونه في وجهه، ويواسون به السائل والمحروم ابتغاء الثوب فيه من الله، قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩ ﴾ [الذاريات:١٩] فجعلهم الله بذلك سادة في الدنيا والآخرة على قدر ما حازوا به تقوى الله، روي أنه ﷺ قال: «المتقون سادة، ومجالستهم زيادة»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٨) عن جابر مرفوعاً.

(٢) (موضوع). رواه ابن النجار عن أنس مرفوعاً. انظر: ضعيف الجامع (٣٨٨٧).

باب في ذكر عقوبة البخل وأن من جاهده كراهية لله

(ش) فينبغي للعاقل أن لا يجالس ولا يصاحب إلا من اشتهر بتقوى الله، فعلامته أن يسود على قومه ببذل المال لهم، وتعليمهم مكارم الأخلاق التي بعث بها رسول الله ﷺ. روى البخاري ومسلم في الأدب أن النبي ﷺ قال: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قلنا: الجد بن قيس على أنا نبخله. قال: وأي داء أدوى من البخل بل سيدكم عمرو بن الجموح»[١].

(ش) فقد وردت أحاديث كثيرة في ذم البخل وأنه من أسوأ الأخلاق التي توجب فقر الدنيا وعذاب الآخرة مدة مديدة في نار الله، روي أنه ﷺ قال محذراً من البخل: «لا توعي فيوعي الله عليك»[٢].

أي: يمسك عن البخيل التوسعة في رزقه، وروي أنه ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط كل ممسكاً تلفاً» أي: ضياعاً في ماله بغير ثواب له فيه من الله «ومنفقاً خلفاً» أي: الذي ينفق ماله في وجوه البر فيثاب عليه ثواباً في الدنيا والآخرة فضلاً وإحساناً من الله[٣].

فيرى أن لو أنفق يصير من أفقر خلق الله؛ لأنه مصدق الشيطان في إيعاده الفقر أن لو أنفق ماله في الله، ولو أنه صدق بقول نبيه في إنفاق المال لله أنه يزداد لأنفقه، وانتظر به المغفرة والفضل من الله، روي عن علي أنه ﷺ إذا استهل رمضان دعا مستقبل القبلة، وإذا فرغ أقبل على الناس بوجهه وقال: «يا أيها الناس! إذا استهل رمضان فتحت أبواب الجنة، وأغلقت

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٧) عن جابر. انظر: صحيح الأدب المفرد للألباني (ص ١٢٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة(١٤٣٤) والهبة (٢٥٩٠ و٢٥٩١) ومسلم (١٠٢٩) عن أسماء بنت أبي بكر.

(٣) رواه البخاري في كتاب الزكاة (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

أبواب النار، وسلسلت الشياطين، وكان لله عند كل فطر عتقاء من النار...»[(١)].

فعلى قدر الإمساك من أحد في مال بخلاً به على مستحقه يكون تلفه في معاصي الله، فتكون العقوبة في الآخرة على قدر ما اكتسب من ضغائن قلبه من عداوة وبغضاء تخلق بها غلبة من الله. قال تعالى في ضغائن القلب: ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ [محمد:٣٧] أي: ما سأل الله العباد أموالهم إلا شفقة الله عليكم أن يبخلوا بها، وإرشاداً لهم أن ينفقوها في وجوه البر، فيخرج بها أضغان قلوبهم التي تورثها القساوة المبعدة من رحمة الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾ [محمد:٣٨].

(ش) أي: من يبخل بإنفاق ماله فيما وجب عليه منه فإنما بخله ضره، وعائد عليه، فلا يورثه إلا فقراً إلى غير الله، فإن الله غني عن ماله وهو المفتقر إلى الله، فلو صح افتقاره إليه لأنفق ماله فيما أرشده إليه، لكنه ما صح فأصبح به مفلساً من خير الله، فعلى قدر ما يوعي بمسكه ما وجب عليه من ماله يمسك عنه الخير من الله.

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى الديلمي عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ إذا استهل شهر رمضان استقبل القبلة بوجهه، ثم قال: اللهم أهله علينا بالأمن والأمانة والسلامة والعافية المجللة ودفاع الأسقام والعون على الصلاة والصيام والقيام وتلاوة القرآن، اللهم سلمنا لرمضان وسلمه منا حتى ينقضي، وقد غفرت لنا ورحمتنا وعفوت عنا».

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر. ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة».

وفي الشرح عبارة (وكان لله عند كل فطر عتقاء من النار وينادي مناد...).

باب في ذكر بغض الصالحين وذكر حبهم في الله

فلا يكون الإنفاق الصالح إلا ممن تخلق بخلق الأخيار في الله، إذ كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، فمن أراد الله به خيراً جعله متبعاً ما كان عليه السلف الصالح وداعياً لهم بما قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠] أي: يحبونهم ويحبون من تابعهم في الله، ومن أراد الله به شراً جعله مخالفاً لهم ومتتبعاً ابتداع من خلف وباغضاً من تتبع ما كان عليه السلف حتى عد من الذين يبغضون أولياء الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: قال الله: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»(١).

باب في ذكر الحسد وأن المحسود في نمو إذا هو على الله اعتمد

أي بالمعاداة التي توجب الخزي في الدنيا والعذاب العظيم يوم حساب الله

فمن الخزي له في الحياة الدنيا أنه ما يود لمن عاداه، وقد اشتهر بالولاية في الناس أن يأتيه خير من الله فيعد من الذين قال الله فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء:٥٤] وهم اليهود كانوا يحسدون رسول الله ﷺ على ما أتاه الله من النبوة والأزواج، ويقولون: لو كان نبياً لاشتغل عن الدنيا ونحو ذلك من المقالات التي تقال من الحاسد لمن حسده بغير مبالاة فيه بحكم الله، قال تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء:٥٤] أي: أعطاهم مع الكتاب والحكمة كثرة المال والأزواج والخدم حتى

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٨٩) عن عمر بن الخطاب بهذا اللفظ، ورواه البخاريُّ في كتاب الرقاق (٦٥٠٢) عن أبي هريرة بلفظ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

صاروا ملوكاً في أرض الله.

فعلمنا أن وجود ما ذكر في إنسان راقب ربه لا ينافي ولايته عند الله فلا يحسده أحد على ذلك إلا خزي في الدنيا بتشتيت حاله، وعذب بعذاب عظيم يوم حساب الله، ولا يواليه أحد لعقيدته أنه مكرم بذلك إلا مؤمن بالله، فعلامته أنه يحب أن يزداد من الخير كما يحبه لنفسه في الله، روي أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[١].

(ش) فهذا الخلق المحمود لا يناله إلا أفضل المؤمنين إيماناً بالله، وأما الناقصون إيماناً فدأبهم الحسد على نقصان إيمانهم بالله، فمن لا يجاهد نفسه على مراقبة الله ليذهب عنه استولى عليه، وأكل حسناته حتى يجعله مفلساً لا يجد له حسنة يدخل بها جنة الله، روى أبو داود أنه ﷺ قال: «إياكم والحسد؛ فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[٢].

فمن شكر النعمة الصبر على طاعة الله، فمن صبر على الطاعة فقد عظم نعمة الله، ومن لم يصبر على الطاعة فقد حقر النعمة كفراً بما جاءت به رسل الله. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل:١١٢][٣].

أي: من كفرهم برسول الله فغير الله ما بهم من نعمة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:١١] أي: بجحود أو كفران نعماء الله، فإن من لم يعظم نعمة الله بالطاعة لله كان مستحقرها بمعصية الله، قال بعضهم: من ازدرى نعمة الله واستخف

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان (١٣) ومسلم في كتاب الإيمان (٤٥) عن أنس مرفوعاً.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٩٠٣) وهو ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة رقم (١٩٠١، ١٩٠٢).

(٣) في الشرح كلمات يتعذر معرفتها في سياق الحديث عن كفر النعمة وقول قوم سبأ: ﴿ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[سبأ:١٩].

بحرمات الله أو انتهكها فقد أهلك نفسه وخسر دينه.

فالازدراء لا يكون إلا من الأشرار الذين آثروا الدنيا على الآخرة، والقانون على شرع فما نظرهم إلا في الابتداع لا في اتباع من سلف من أهل الله.

باب في ذكر سوء الظن بالمسلم إذا هو أظهر صلاحاً

(ش) فمن أراد الله به خيراً دله على مجاهدة نفسه بمراقبة الله حتى يذهب عنه الحسد، ويثبت مكانه الود لكل مؤمن بالله، فيحسن الظن ما استطاع ويلتمس له أعذاراً عندما يرمى من الحساد بما ليس فيه ويظن صدقه في الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»[١].

باب في ذكر تعمد الكذب على الله وعلى رسوله

(ش) فالحاصل أن من قام لله قانتاً كثر حساده يرمونه بالظن الفاسد، ويلبسونه بما يفترون فيه الكذب على الله، فيظن الظان أنه صدق، والحال أنه كذب لا أصل له يوجب اللعنة من الله، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الأنعام:٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الزمر:٦٠] وهم الذين تكبروا على القول بالحق، وكتموه ولم يبينوا به المحق من المبطل حتى ساءت لهم العاقبة من الله، فكم من أناس تكبروا على الحق حتى افتروا الأكاذيب في مجادلتهم بالباطل، واحتجوا له بأحاديث مفتراة فيها الكذب على رسول الله، فيا ويلهم حين يحشروا إلى ربهم مسودة وجوههم، ومساقين إلى نار الله. روي في الصحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٦٣) عن أبي هريرة مرفوعاً.

قال: «إن كذباً عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[1].

باب في ذكر القول على الله بغير علم

(ش) فلا يتأتى ما ذكر إلا بترك مجاهدة النفس في الله، أما من جاهد نفسه في الله على اجتناب ما حرم الله فلا بد أن يهدى إلى سبيل الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف:٣٣] فمن أراد الله به خيراً دله على عالم رباني يعلمه تفاصيل ما حرم الله ظاهراً وباطناً حتى يجاهد نفسه على تجنبه وبغضه في الله، فمتى علمه عرف تفاصيل الشرك الذي له سبعون باباً ظاهراً وباطناً منه الكبير ومنه الصغير، وكله حاجب عن الله، فحجاب الكبير كبير كثيف، وحجاب الصغير صغير خفيف، يعرف ذلك المجاهد نفسه في الله، أما غيره فلا يدرك من الشرك إلا ما تفوهت به الناس بعلم أو بغير علم تقليداً بغير مراقبة فيه لله، فيا ويل من يقول في الشرك بغيره، أو فيما حرم أو أحل فإنه يصير من المتكلفين المارقين من دين الله. روى أبو موسى قال: «من علمه الله علماً فليعلمه الناس، وإياه أن يقول ما لا علم له به فيصير من المتكلفين ويمرق من الدين»[2].

وفي الصحيح عن ابن عمرو مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً

---

(١) الأول رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٢٩١) ومسلم في المقدمة (٤) عن المغيرة بن شعبة.

والثاني رواه مسلم في المقدمة (١/ ٩) عن سمرة بن جندب.

(٢) رواه الدارمي في سننه (١/ ٢٠٠) موقوفاً.

جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[(١)].

فليحذر المشفق على نفسه من مروق الدين خصوصاً إن حكم على أحد في أخذ مال أو سفك دم فإنه يشدد عليه به العذاب من الله، فهو بمنزلة شاهد الزور بل هو بعينه؛ لأنه حكم بما لا يعلمه من كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج:٣٠]. روى ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «إن الطير لتخفق بأجنحتها وترمي ما في حواصلها من هول يوم القيامة، وإن شاهد الزور لا تزال قدماه حتى يتبوأ مقعده من النار»، وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»[(٢)].

فهل يسمع بهذا التشديد في الوعيد أحد ولم ينته عن قول الزور إلا المنافق الذي سلب منه الإيمان بالله، ومثله في تشديد الوعيد من حلف كاذباً لأخذ مال مسلم بغير حق في الله، روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان. ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران:٧٧]»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (١٠٠) والاعتصام (٧٣٠٧)، ومسلم رقم (٢٦٧٣).

(٢) حديث ابن عمر رواه ابن ماجه (٢٣٧٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٩٨) قال: صحيح الإسناد. قال الألباني بأنه منكر كما في السلسلة الضعيفة (٣/ ٢٥٩).

وحديث أبي بكر رواه البخاري في كتاب الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم في كتاب الإيمان (٨٧).

(٣) رواه البخاري في كتاب المساقاة (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) ومسلم في كتاب الأيمان (١٣٨) عن ابن مسعود مرفوعاً.

باب في ذكر من حلف بالله كاذباً لأخذ مال بغير حق

(ش) فما يسمع أحد بهذا الوعيد الشديد ثم لا يبالي باليمين الكاذب إلا الذي لا إيمان له بوعيد الله، روى مسلم أنه ﷺ قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة. فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك»(١).

باب في ذكر قذف المحصنات

(ش) فلا يرضى أن يكون محروماً من الجنة وحطباً للنار بيمينه الكاذبة في شيء حقير إلا الذي سلب عقله، وطمست بصيرته، وغلب عليه الشقاء من الله، فإذا لم يبال بذلك لا يكون مبالياً بالسبع الموبقات إذا ارتكبهن آمناً فيها وعيد الله، وهي فيما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٢).

باب في ذكر ذي اللسانين

(ش) فإذا لم يبال مرتكبهن بأيتهن له في النار لا يبالي إذا هو استهزاء بمن ينكر عليه في الله، فيصير متلاعباً بالدين بين أهل الحق وأهل الباطل الذين اختصموا في الله، قال تعالى في وصف من يكون كمثله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة:١٤] فلا يكون على هذا الوصف الموجب الشقاء الأكبر إلا الذي لا

(١) رواه مسلم في كتاب الأيمان (١٣٧) عن أبي أمامة مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا (٢٧٦٦) وكتاب الحدود (٦٨٥٧)، ومسلم في كتاب الإيمان (٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً.

يبالي بقول الله فيه: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [البقرة:١٥] أي: يترددون في الطغيان المرة بعد المرة حتى تسأ به العاقبة لهم من الله، فيكونون مذبذبين بين أهل الحق وأهل الباطل مبغوضين من الطرفين كما قال تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النساء:١٤٣] فيأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، فلا يصدق من الطرفين مبغوضاً لديهم ولدى الله، روي أنه ﷺ قال: «تجدون شرار الناس ذا الوجهين؛ الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، وروي أنه ﷺ قال: «من كان ذا لسانين في الدنيا جعل الله له يوم القيامة لسانين من نار»[(١)].

باب في ذكر النميمة

(ش) فإذا لم يبال من ذكر بما ذكر لا يبالي بالغيبة مع إقرانها بالنميمة حتى يفسد بين الأخوين أو القبيلتين فيصير من أشقى خلق الله، قال تعالى في وصفه: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [القلم:١١-١٢]. روي أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»، وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال في حديث القبرين: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير بلى إنه كبير» وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالة بين الناس»[(٢)].

---

(١) الأول حديث أبي هريرة رواه البخاري في كتاب المناقب (٣٤٩٤) والأدب (٦٠٥٨) والأحكام (٧١٧٩) ومسلم في البر والصلة (٢٥٢٦).

والثاني حديث أنس رواه البزار وأبو يعلى. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٥): (وفيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف).

(٢) الأول حديث حذيفة رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان (١٠٥).

الثاني حديث ابن عباس رواه البخاري في كتاب الطهارة (٢١٦، ٢١٨) والجنائز (١٣٧٨) والأدب (٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم في كتاب الطهارة (٢٩٢).

أي: يرمي هذا عند هذا ولو بالصدق إذا هيج بينهم العداوة والبغضاء ولو على بعد وظن أنهما لا يكونان لقوة مودتهم في الله، فإن شر الناس من يسعى بالنميمة بين المؤمنين والمؤمنات كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٨]. روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»[1].

باب في ذكر الغيبة والبهتان الموجبتين طول المكث في النيران

(ش) أي لا يخرج منها إلا بشهادة يشهد له أحد فيها أنه صادق فيما قال، ولا يكون مخلداً في نار الله، فمن هذا حاله لا يبالي بارتكاب الكبائر ويتزايد في غيبة الناس بما فيهم وبما ليس فيهم، ولا يبالي في ذلك عبد الله. روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[2].

والثالث حديث ابن مسعود رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٠٦).

(١) رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٧) وابن ماجه في الأشربة (٣٧٧) وأحمد (٢/ ٧٠) عن ابن عمر مرفوعاً. وزاد ابن ماجه: «قالوا: يا رسول الله وما ردغة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار» انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٤٣٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً.

باب في ذكر اللعن وإفشاء السر وأن لعن المؤمن كقتله

(ش) هذا الخلق الذميم لا يكون إلا في الذي لا يجاهد نفسه في مراقبة الله، فيكون كثير اللعن سيء الخلق مبغوضاً لدى الناس ولدى الله، روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها فتهبط إلى الأرض فتأخذ يميناً وشمالاً حتى إذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لعن»(١).

وروى مسلم أن امرأة لعنت ناقتها فقال رسول الله ﷺ: «لا تصحبنا ناقة عليها لعنة»(٢).

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لعن المسلم كقتله»(٣).

(ش) فمن سمع ما ذكر في الحديث ثم يستمر على لعنه الذي اعتاده إلا منافق لا يبالي بوعيد الله، فيكون من أشر الناس منزلة كالذي يغشى من امرأته في كيفية جماعها، وكذا إذا هي أفتته فتكون مثله مبغوضة لدى الله، وفاعل ذلك لا يكتم سراً لأحد أودعه إياه، ويكون خائناً في أمانة الله. روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «إن من أشر الناس منزلة عند الله الرجل يفضي إلى امرأته أو تفضي إليه ثم ينشر أحدهما عن صاحبه» وفي رواية له أنه «من أعظم الأمانة»(٤).

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «إذا حدث الرجل بالحديث فهو أمانة»(٥).

---

(١) حديث أبي الدرداء رواه أبو داود في كتاب الأدب(٤٩٠٥). وانظر: السلسلة الصحيحة (١٢٦).

(٢) حديث أبي برزة رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٩٦).

(٣) حديث ثابت بن الضحاك بلفظ: «لعن المؤمن كقتله».

(٤) حديث أبي سعيد رواه مسلم في كتاب النكاح (١٤٣٧).

(٥) حديث جابر رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٨٦٨) والترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٥٩) وأحمد في المسند (٣/ ٣٨٠)، وانظر السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩٠).

وروى أحمد أن النبي ﷺ قال: «من سمع من رجل حديثاً كره أن يذكر عنه فهو أمانة وإن لم يستكتمه»(١).

(ش) فلا يكون مبيحاً لسر ما ذكر إلا الفاحش المتفحش المؤذي الأحياء والأموات سباً آمناً في ذلك وعيد الله، فيكون من أعوان الشياطين على من عثر في ذنب وأقيم عليه حد الله روى البخاري عن أبي هريرة (أنهم ضربوا رجل قد شرب الخمر فلما انصرف قال بعض القوم أخزاه الله قال لا تقولوا هذا لا تعينوا عليه الشيطان) (٢).

باب في ذكر سب الأموات ورمي الأحياء بما ليس فيهم من كفر أو فسق

(ش) فأهل زماننا لو سمعوا بمن عثر في ذنب أكثروا فيه السب بما فيه وبما ليس فيه، وألحقوا به أبويه ومن رباه وحتى قبيلته وأهل بلده ولو كانوا من أهل بيت رسول الله ﷺ، فقد جمعوا في ذلك بين أذية الأحياء والأموات، ولا أحد ينكر عليهم لله، والذي ينكر عليهم يكون كثير الضحك معهم، وهم يضحكون عليه حين إنكاره عليهم في الله، روى البخاري أنه ﷺ قال: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»(٣).

(ش) وفي رواية لأحمد: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء» فعلى هذا النهي لا يجوز سب من مات على الكفر وله نسل مسلمون يتأذون بسبه، فكيف من مات على الإسلام لا سيما بما لا يعلم مما يقام عليه حد أو تعزير في الله، فنعوذ بالله من شرار أهل هذا الزمان الذي

---

(١) حديث أبي الدرداء قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩٧): (وفي إسناد أحمد وأحد إسنادي الطبراني عبيد الله بن الوليد الوصافي وهو متروك).

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود (٦٧٧٧، ٦٧٨١) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٣٩٣، ٦٥١٦) عن عائشة مرفوعاً.

جبلت ألسنتهم على السب الفاحش، ورمي بعضهم بعضاً بالزنا والفسق والكفر بالله، فكم من عالم منهم يقرأ أحاديث ما ورد في النهي عن ذلك ولم يتفقهوا ولا يتفقهها الجهلاء بها لعدم مبالاته بوعيد الله، روى البخاري أن النبي ﷺ قال: «لا يرمي رجل رجلاً بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك» وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بالنار» وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من دعا رجلاً بالكفر أو الفسق وقال: عدو الله إلا حار عليه»(١).

أي: رجع عليه ما قاله فيه، وفي رواية ذكر فيها تقييد: «إن لم يكن الذي سبه أهلاً لذلك رجعت عليه» ولا بد من البيان يوم حساب الله، فأشدهم حساباً في ذلك وعقاباً الذين يتسابون في الوالدين باللعن والرمي والسب بالفواحش العظام التي توجب عليه تنزلات لعنات الله.

باب في ذكر حرمة لعن الوالدين

روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل: يا رسول الله! كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»(٢).

(ش) فقد تجاوز أهل هذا الزمان في السب الفاحش بأكثر مما كان قبلهم، وخاووا في ذلك الشياطين أعداء الله حتى إنهم لا يقيمون في ذلك حداً ولا تعزيراً في الله، فمتى اشتد

---

(١) الأول حديث أبي ذر رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠٤٥).

الثاني حديث سمرة رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٦) والترمذي في كتاب البر (١٩٧٦) وأحمد (٥/ ١٥).

انظر: صحيح الجامع (٧٤٤٣).

الثالث حديث أبي ذر رواه البخاري (٦٠٤٥) ومسلم في كتاب الإيمان (١١٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في كتاب الإيمان (٩٠) عن ابن عمر مرفوعاً.

سبهم وخصامهم فيه بالباطل اعتزوا إلى الجهلة بأحكام الله، فأيهم أقوى بمال أو بمنصب لديهم حكموا له، وأقاموا على ضعيفهم ما يجاوز حد الله، فهذا خلق أهل الهلاك الذين يشتد عليهم غضب الله.

باب في ذكر النهي عن دعوى الجاهلية

فقد عد النبي ﷺ من يعتزي بالأخيار ليقوموا معه على الأخيار بغير صلح أنه من فعل الجاهلين بأحكام الله، وهو فيما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ لما قال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار قال: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم» وغضب لذلك غضباً شديداً[1].

(ش) فمراده ﷺ أن يكون منهم التحاكم إلى شرع الله، فمتى انصب الحكم على أحد منهم أقيم عليه من غير نظر إلى مهاجري ولا إلى أنصاري كما قال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥] أي: فلا يراعي في حكمه قوياً ولا ضعيفاً ولا قريباً ولا نسيباً كما قال رسول الله ﷺ: «لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» قاله حين أتي له بالمخزومية التي حكم بقطع يدها في سرقة وشفع فيها من لا يدري بذلك في الله، وهو فيما رواه البخاري ومسلم في حديث المخزومية: «أتشفع في حد من حدود الله»[2].

(ش) فلما درى أن الشفاعة في حد لا تجوز استغفر الله، روى مالك في الموطأ عن الزبير أنه قال: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع»، وروي عن ابن عمر أنه قال: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره»[3].

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥) ومسلم في البر (٢٥٥٤) عن جابر مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء (٣٤٧٥) والحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (١٦٨٨).

(٣) الأول حديث الزبير موقوفاً رواه مالك في الموطأ في الحدود (٢٩). قال الحافظ في الفتح (١٢/ ٨٧): (منقطع مع وقفه).

باب في ذكر النهي عن الشفاعة في الحدود

(ش) فواجب على كل أمير أن لا يقبل شفاعة أحد في حد من حدود الله بل يقيمه على الشريف والوضيع والبعيد والقريب إليه ولا تأخذه به رأفة في دين الله، قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور:٢] فما ذكر كله كأنه على غيرنا وجب، ولا يبالي فيه بحساب ولا عقاب ولا عتب، وقد حصل علينا من أجله الغضب فتنوعت بلاويه فينا، وما شعر بالنصب، فلا يزال يشدد علينا حتى نثوب بالبكاء والنحيب فيرحمنا الله بذلك كرامة لمن فينا يحب، فلا يتأتى البكاء والنحيب إلا من يوم يتعاونون على البر وتقوى الله، أما ما داموا متعاونين على الإثم والعدوان فهم في زيادة من القساوة التي تشدد عليه عقاب الله، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:٢].

فعلمنا أن بالبر والتقوى تكون الرحمة، وبالإثم والعدوان يكون العقاب من الله، فأهل البر والتقوى يسعون في الصلاح والشفاعة الحسنة فيه رجاء الثواب فيها من الله، وأهل الإثم والعدوان يسعون في الفساد والشفاعة السيئة فيه بغير مبالاة فيها بوعيد الله، قال تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء:٨٥] فما ذكر في الآية ميزان للفريقين فليختر المرء أي الفريق حتى يكون منه، ومحشوراً معه إلى جنة أو إلى نار الله، قال الله في وعد الآية ووعيدها: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء:٨٥] أي: رقيباً فيجازي كلاً بما عمل في سعيه، إما شاكراً فيه فيثيبه على قدر شكره في الله، وإما كفوراً فيه فيعاقبه إن لم يكن له ما يكفره من حسنات الله.

الثاني حديث ابن عمر مرفوعاً رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٧) وأحمد (٢/ ٧٠). انظر: السلسلة الصحيحة (٤٣٨).

باب في ذكر التعاون في الخصومة بالباطل وذكر التعاون على التقوى

(ش) فعلامة من يبتغي الشفاعة بالباطل، والخصومة به، والتسابب بالإفك، وعدم المبالاة في ذلك بوعيد الله، روى أبو داود أنه ﷺ قال: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال في مسلم ما ليس فيه حبس في ردغة الخبال حتى يخرج مما قال. قيل: يا رسول الله! وما ردغة الخبال؟ قال: عصارة أهل النار» وفي رواية له: «ومن أعان على خصومة في باطل فقد باء بغضب من الله»[1].

باب في ذكر التحذير في الكلام فيما لا يعني لا سيما في الفتن

(ش) فمن أراد أن يسلم من شر ما ذكر فعليه بخصوصية نفسه ويجاهدها في الله ويذكر قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» فعساه أن يسلم من شرور أهل زمانه الخائضين في الباطل، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً في الله[2].

فقد وقع في خاصة العرب منهم فتنة فصيرتهم خياراً في دين الله، فالصادق منهم المخلص في قول الدين قليل، والكاذب كثير قد أفسد عليهم دين الله، فيقول بالدين ولا يعمل بأحكامه، فصار بذلك من أمقت الخلق عند الله، قال تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف:٣] وقال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤] أي: ما وجب عليكم من البر الذي يكون به العدل

---

(١) سبق التخريج.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١٨) مسلم في كتاب الإيمان (٤٧) عن أبي هريرة مرفوعاً.

في حكم الله لأنهم يقولون: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل:٩٠].

فمن لا يتذكر بما ذكر في الآية ويعمل به عد من الجائرين في حكم الله، فلا شك أن من كان بضد ما ذكر في الآية عد من المفسدين ولو يزعم أنه من المصلحين القاصدين وجه الله، لكن من قام لله خالصاً قانتاً في مظهر دينه لم يكن منهم، وحشر على نيته التي أخلص فيه لله، والذي لم يخلص في نيته فلا بد أن يكون منهم ولو أظهر الصلاح في دين الله، فالحاصل أنا قد فتنا جميعاً بقولنا: دين دين ولم نقم فيه بأحكامه الموجبة العدل في الله، فنخاف أن تعمنا عقوبة ما رواه أبو داود أن النبي ﷺ قال: «ستكون فتن تستنظف العرب قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف»[١].

(ش) فما يكون القتيل بها في النار إلا من أجل أنه ما راقب فيها الله، فيشهد على زيد وعلى عمرو بأنه فاسق أو كافر بغير ميزان علم الله فلذلك قال: «وقع اللسان فيها أشد من وقع السيف»، أما إذا كان كفر أو فسق بميزان القرآن وكان مخلصاً لله في إنكاره كان في جنة الله، لكن من وصف فيها بالإخلاص لله قليل، والكثير لا يعرفونه فيكون قتالهم لغرض دنيوي يساؤن به من الله، فيكونون حطباً للنار ولو قتلوا في صف من قصد بقتالهم وجه الله، فإن العلل المفسدة للعمل كثيرة لا يعرفها إلا المجاهد نفسه في الله، فإنه لا يهدى إلى سبل الإخلاص لله، فما دام العرب لم يفرقوه فقتالهم معلوم بحب المظاهر الدنيوية بدين الله، فيكون أكثر قتلاهم في النار، والقليل من يخلص في قتاله لأجل دين الله.

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الفتن (٤٢٦٥) والترمذي (٢١٧٨) وابن ماجه في كتاب الفتن (٣٩٦٧) عن عبد الله بن عمرو، وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (٢٤٧٥) وفي الأصل وقع السيف، والصحيح ما أثبتناه.

والمراد بها في الحديث أن قتلاها في النار أي الكثير لا كلهم كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٤] وهم ما تولوا كلهم وإنما أكثرهم تولوا فحكى عنهم الله، فلا يصير العرب قتالهم لله خالصاً إلا إذا تعلموا مجاهدة أنفسهم في الله، فإن مجاهدة النفس تعرف سبل التواضع للحق والإخلاص فيه لله.

إذا هي المعرفة بعيوب النفوس التي من عرفها اشتغل بخاصة نفسه في الله، أما من لم يعرفها فعلل ما يحبط أعماله مدسوسة فيه، وقد أعمت بصيرته بحسب أنه على هداية الله، فلا يعرف الفتنة التي قال فيها ﷺ: «ستكون فتنة صماء بكماء عمياء، اللسان فيها كوقع السيف» رواه أبو داود[١].

وقال: «إياكم والفتن فإن اللسان فيها كمثل وقع السيف» رواه ابن ماجه[٢].

فيظل خائضاً فيها بلسانه على ما يهواه المتحزبون معه على الدنيا بغير ميزان شرع الله، فلا يتعب من فتنة من ذكر إلا المؤمن الحائر في دينه أهو معلل بعللهم أو هو خالص منها إن هو جاهد نفسه في الله فيرى نفسه أنه أهلك أهل زمانه، وأنه استحق الخلود في نار الله، فمن يكون كذلك يرى الناس هلكى بذنوبهم، وأنه الناجي من عذاب الله فيكون هو أهلكهم كما قال ﷺ: «إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم» رواه مسلم[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٦٤) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: (ستكون فتنة صماء بكماء عمياء من أشرف لها استشرفت له، وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف) وهو ضعيف كما قال الألباني في المشكاة (٥٤٠٢).

(٢) رواه ابن ماجة (٣٩٦٨) عن ابن عمر مرفوعاً. قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٤٧٩): (ضعيف جداً).

(٣) رواه مسلم (٤٧٥٥) عن أبي هريرة. وعلى رواية الرفع معناها أشدهم هلاكاً، وعلى رواية الفتح فمعناها هو جعلهم هالكين.

باب في ذكر التواضع

روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1].

فمتى تحققوا بالتواضع ذهب عنهم التفاخر بالأنساب والأموال، ولم يبغ بعضهم على بعض تواضعاً لله، فيكون بذلك الإخلاص لله في قتالهم ويطهر بهم دين الله، فارجوا الله أن يتمم نوره بقول العرب: دين دين حتى يظهروا مخلصين فيه لله، فهم بمنزلة من حكى الله عنهم بقوله: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ [الحجرات:١٤] ثم بشرهم بقوله: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] فهم إن تحققت البشرى فيهم اليوم من الله فعساهم يجاهدون أنفسهم باتباع الأحكام الإسلامية حتى يكونوا مسلمين، وجهة قلوبهم إلى الله، فلا يفتخرون بنسب ولا بمال، ولا يطعن بعضهم في نسب بعض لاعتمادهم على تقوى الله، فما داموا لم يتركوا الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب فهم من شرار خلق. روي أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[2].

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب»[3].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة (٤٢٨٦٥) عن عياض بن حمار مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري.

(٣) رواه الترمذي في كتاب المناقب (٣٩٥٥)، وأبو داود في كتاب الأدب (٥٥١٦)، وأحمد (٢/ ٣٦١). انظر: صحيح الجامع (٥٤٨٢).

باب في ذكر الطعن في الأنساب وهو مما يوجب الكفر بنعمة رب الأرباب

(ش) فما دام الناس يعيب بعضهم في نسب بعض، ويفتخرون بآبائهم ولو كانوا مسلمين فهم على خلق الجاهلية الذين ما آمنوا برسول الله روي أنه ﷺ قال: «اثنتان في الناس وهم بهما كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت»(١).

(ش) المراد بالكفر المذكور هو نقص الإيمان بالله، ولو تكامل إيمانهم بالله لأيقنوا أنه لا عز إلا بالله، فلما شكوا في ذلك ما تركوا الطعن في النسب ولا النياحة على الميت إلا أن يقهروا بأهل العدل في الله، ومنهم الذي يدعى إلى غير أبيه لينال عزاً به، ولا ينال إلا الذل به في الدنيا، والعذاب في نار الله، ومثله الذي ينتمي إلى غير مواليه فيعد من شرار خلق الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فالجنة عليه حرام»(٢).

باب في ذكر من ادعى نسباً كذباً فإنه يكون به في النار معذباً

ورويا أنه ﷺ قال: «لا ترغبوا عن آبائكم، ومن رغب عن أبيه فهو كفر»(٣).

وورد بأنه ﷺ قال: «من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير (مواليه) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»(٤).

وروى أبو داود وابن ماجه أنه ﷺ قال: «أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٦٧) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢)رواه البخاري في كتاب الفرائض (٦٧٦٦) ومسلم في كتاب الإيمان (٦٣).

(٣) حديث أبي هريرة رواه البخاري في كتاب الفرائض (٦٧٦٨) ومسلم في كتاب الإيمان (٦٢).

(٤) حديث علي رواه البخاري (١٨٧٠) ومسلم في كتاب الحج (١٣٧٠).

فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس الأولين والآخرين»(١).

باب في ذكر من ادعى ما ليس له أو بما ليس متحقق به

وروينا أنه ﷺ قال: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار، ومن دعا رجلاً بالكفر أو قال: يا عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه»(٢).

باب في ذكر التفاخر بالعلم

(ش) فلا خلاص مما ذكر إلا بتعلم العلم لأجل العمل به لله، أما إذا تعلمه أحد بغير العمل به فهو أجهل الجاهلين بالله، وعلامة جهله دعواه أنه عالم، أو دعواه أنه في الجنة، أو دعواه أنه كامل الإيمان بالله، فيصدق عليه ما رواه ابن مسعود وعمر: «من قال: أنا مؤمن فهو كافر، ومن قال: هو في الجنة فهو في النار، ومن قال: هو عالم فهو جاهل»(٣).

فمن لا يجاهد نفسه بالعلم حتى يخلص في العمل يكون كثير الدعاوي بأنه من خيار

---

(١) رواه أبو داود (٢٢٦٣) وابن ماجة (٢٧٤٣) عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية المتلاعنين.

وفي الشرح أيضاً (كفر من تبرأ من نسبه) وروى الطبراني معناه من حديث أبي بكر الصديق.

(٢) حديث أبي ذسر رواه البخاري في كتاب المناقب (٣٥٠٨) مسلم في كتاب الإيمان (١١٢).

(٣) روى الطبراني في الأوسط: «من قال: أنا عالم فهو جاهل» عن ابن عمر بسند فيه ليث ابن أبي سليم، وفي الصغير من قول يحيى بن أبي كثير بلفظ: (من قال: أنا في الجنة فهو في النار)، وسنده ضعيف، قال السخاوي: (وهو عند الديلمي في مسنده عن جابر بسند ضعيف جداً، ورواه الحارث بن أبي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفاً عليه وهو منقطع).

انظر: المقاصد الحسنة (١/ ٢٢٢) كشف الخفاء (٢/ ٢٦٩)، تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٧٧).

خلق الله، والحال أنه من شرارهم لكثرة دعاويه الكاذبة، ولحب الشهرة بالعلم في أرض الله، روى الترمذي أنه ﷺ قال: «يظهر الإسلام حتى يختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟ قال: فهل في أولئك من خير؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار»[١].

باب في ذكر جحود النعمة وأنه يوجب النقمة

فالحاصل أن من تعلم علم الكلام ولم يتخلق بخلق الكرام عد من اللئام، وكان وقوداً لنار الله، فيكون كثير الشهوات والغفلات في خلق النساء اللاتي يكفرن العشير، ويكفرن إحسان من أحسن إليهن في الله. روي في الصحيح أنه ﷺ قال: «اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط»[٢].

فكذلك عالم السوء لو يحسن إليه أحد مهما يحسن لا يجازيه إلا بخلق اللئام القاطعين وصلة أمر الله. روى الترمذي أنه ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٣].

فإن من لم يؤد حق الله الذي وجب عليه لا يؤدي خلق الله، فلا يجازي بالحسنة إلا

---

(١) رواه البزار عن عمر مرفوعاً في كتاب العلم باب ما يخاف على العالم (١٧٣) والطبراني في الأوسط (٣٣١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٦): (ورجال البزار موثقون).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان (٢٩) والكسوف (١٠٥٢) وفي النكاح (٥١٩٧) ومسلم في كتاب الكسوف (٩٠٧) عن ابن عباس مرفوعاً.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٨١١) والترمذي في البر (١٩٥٤) وأحمد (٢/ ٢٥٨) عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٦٦٠١).

السيئة، ويخاف شره ولا يرجى خيره، كما هو مجرب اليوم في علماء السوء الذين أفسدوا على الناس دين الله، فقد قال ﷺ: «اثنان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء»(١).

فعلامة ذلك أن من أعطاهم عطاء، أو فعل معهم معروفاً لا يكافئوه به، وهم يجدون ما يكافئونه به بخلاً بمال الله، والذي لا يجد منهم ما يكافئ به لم يثن على صانع المعروف معه ثناء حسناً في الله، روى الترمذي أنه ﷺ قال: «من أعطى عطاء فليجز به إن وجد، ومن لم يجد فليثن، ومتى أثنى فقد شكره ومن كتمه فقد كفره»(٢).

فلو أن العلماء والأمراء فعلوا بما ذكر لصلح بهم الناس، ولحببوا إليهم دين الله، ولكنهم فعلوا بضد ما ذكر ففسد بهم الناس حتى بغضوا إليهم به دين الله.

كان ﷺ يكافئ لمن صنع إليه معروفاً إن وجد وإلا دعا له مع الثناء بين الناس ليظهر فضله في الله، فلذلك تحامل أصحابه على ظهورهم الصنائع، وجاءوا بكسبها إليه ليتصدق بها في الله، فإن الناس إذا علموا من أميرهم الزهد والمكافأة ولو بالدعاء واصلوه ولو بكدهم قدر طاقتهم في الله، أما إذا علموا منه الطمع وقلة المكافأة قاطعوه لا سيما إن ظلمهم بأخذ ما لديهم حتى بغضوه في الله، فإن من أشر الأمراء من يبغضه رعيته ويبغضهم، ويدعو الله عليهم ويدعون عليه الله، وإن من خير الأمراء من تحبه رعيته ويحبهم، ويدعون الله له ويدعو لهم الله.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي عن ابن عباس. ورواه عنه أيضاً ابن عبد البر بلفظ: «صنفان من الناس» قال الحافظ العراقي: (وسنده ضعيف). انظر: فيض القدير للمناوي (٤/ ٢٧٦).

(٢) رواه الترمذي في كتاب البر (٢٠٣٤) وأبو داود (٤٨١٣). انظر: السلسلة الصحيحة (٦١٧).

باب في ذكر الإلماز بالمطوعين والاستهزاء بضعفائهم

فمن يكن على هذا الوصف مع أصحابه الكرام لا يبغضه إلا منافق أو كافر بالله، كالمنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيبطلون صدقاتهم بالرياء والسمعة قياساً على نياتهم الفاسدة حتى مقتهم الله.

روى ابن مسعود قال: (لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة:٧٩])[(١)].

أي: يعيبونها عليهم في كثيرها وقليلها لظنهم السيئ الذي خالفوا بشرع الله، إذ كل من خالف شرع الله لا يكون ظنه إلا سيئاً بمن ظاهره الصلاح لله، فتراه يعترض عليه ويعلل أفعاله بأنها ليست خالصة لله، فهو بمنزلة الكفار الذين كانوا يضحكون من الذين آمنوا بالله، بل هو أقبح منهم لمخادعته المؤمنين بأنه منهم، وليس هو منهم لبغضه إياهم وسوء الظن بهم، فيا ويله من عذاب الله، فإنه يكون في الدرك الأسفل من النار على قدر ما سخر بمن ظاهرهم الصلاح في الله.

باب في ذكر الاستهزاء ممن تعاظم في نفسه حتى استحقر الطائع لله ونسي به ذكر الله

فكل من المنافقين والكافرين الذين سخروا من المؤمنين يعذب على قدر ما سخر وضحك بعذاب لا نهاية له في نار الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ

---

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤١٥) والتفسير (٤٦٦٨) ومسلم (١٠١٨) عن أبي مسعود، وليس كما جاء في الشرح ابن مسعود تبعاً للأصل وهو تصحيف.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين:٢٩-٣٠] أي: استهزاء بهم ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين:٣١] أي: ملتذين بذكرهم في مجالس أهلهم على أنهم كذبوا على الله أو ما أخلصوا العبادة لله ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ [المطففين:٣٢] أي: عن طريق الحق الذي زعموا أنهم عليه وقد افتروا به الكذب على الله ﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين:٣٣].

أي: أعمالهم التي قصدوا بها وجه الله لأنهم أمروا بالظواهر، والمتولي السرائر هو الله، فلو وكلوا سريرتهم إلى ربهم لآمنوا كإيمانهم، وعملوا عملاً خالصاً لله، لكنهم عللوا إيمانهم وأعمالهم بحسب مظاهر الدنيا الذي هو دأبهم فخسروا بذلك خير الله، فيكون خسرهم على قدر ما اتخذوهم سخرياً حتى أمنوا هم مكر الله، فإن الذي يتخذ من ظاهره الصلاح سخرياً ينسى به ما عليه من حق الله، فيظل في اهتمام من إقامة الحجج عليه ليدحض بها حجة ما قام به لله، فيتخذه وحجته سخرياً بين من يتفكه معه في أهله بذكره الذي ينسيه ذكر الله، قال تعالى: ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٠-١١١].

(ش) فكل من المؤمنين الذين سخر منه الكافرون والمنافقون يكون فوزه على قدر صبره الذي خلص فيه لله، وكل من الكافرين والمنافقين يكون عذابه على قدر سخريته بمن ظاهره الصلاح لله، فقد أمرنا جميعاً أن لا نسخر بإنسان فإن كان كافراً ندله على ما بلغته رسل الله، وإن كان فاسقاً ننصحه بزواجر آيات الله، ولا نستحقر أحداً من المسلمين لعدم اطلاعنا على سريرته التي لا يعلمها إلا الله قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات:١١].

فهذا الخلق الذميم الذي ذنبه عظيم قد استولى على أهل هذا الزمان الذين لم يخافوا مقام الله، فسخر بعضهم من بعض لأجل أن يضحكوا ويتفكهوا بذكر من سخروا به حتى نسوا ذكر الله، واستسخارهم بمن ينكر عليهم في ذلك أشد حتى يكادون يسطون عليه بالضرب والقتل لا سيما حين يزجرهم بآيات الله، فما دأبهم إلا التلامز الذي هو ذكر عيب بعضهم بعضاً الموجب حبط العمل الصالح لله، وكذا التنابز بالألقاب الاستحقار بها الموجب البعد من الله، فمن تخلق بهذه الأخلاق الذميمة صار من الفاسقين عند الله، قال تعالى فيها: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحجرات:١١] أي: بعد التسمي بالإيمان يكون مسمياً بالفسوق لأجل ارتكابه ما نهى عنه الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات:١١] أي: لإصرارهم على ما ذكر فيحشرون مع الظلمة كما قال ﷺ: «الظلمة وأعوانهم في النار»[1].

فأشرهم محشراً الذين يستهزئون بالناس لا سيما الصالحين منهم الداعين إلى الله، وروى البيهقي أنه ﷺ قال: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم في الآخرة باب من الجنة فيقال له: هلم فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاء أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال له: هلم هلم فيجيء بكربه وغمه، فإذا جاءه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أن أحدهم ليفتح له باب من أبواب الجنة فيقال: هلم فما يأتيه من اليأس»[2].

وروى ابن ماجه وغيره عن ابن عمر: (من مات همازاً لمازاً ملقباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كل الشدقين)[3].

---

(١) رواه الديلمي (٢/ ٢٦٦) عن حذيفة مرفوعاً، وهو موضوع. انظر: السلسلة الضعيفة والموضوعة (٨/ ٣٠٥).

(٢) رواه المنذري في الترغيب والترهيب عن الحسن مرسلاً وهو ضعيف. انظر: صحيح الترغيب والترهيب وضعيفه للألباني (٢/ ١٤٠).

(٣) لم أجده عند ابن ماجة ورواه الطبراني في الكبير والأوسط عن ابن عمر مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٤): (وفيه عبد الله بن صالح وثَّقه عبد الملك بن شعيب وضعفه غيره).

باب في ذكر التحدث في المعصية و التشبع بما لم يعط

(ش) فمن لم يتب من ذلك كان ما ذكر محشره لا سيما المتجاهر بفسقه المتخلق بكل خلق ذميم يبغضه الله فيحيط به داء الذنوب الذي لم يبق له حسنة يدخل بها جنة الله. روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان! قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويكشف ستر الله عليه»[(١)].

فهذا الخلق الذميم قد فتن به ناس كثير، وقد تجاهروا بفسوق شتى، ولم يبالوا فيها بوعيد الله، فأعظم الاستسخار بالصالحين الداعين إلى الله، وأحقرها إنما المتشبع بما لم يعط ليفتخر به على خلق الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قالت له امرأة: إن لي ضرة فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي بما لم يعطني فقال: «إن المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[(٢)].

باب في ذكر الشتم بالزنا وما يستحق فيه العقوبة

(ش) فقل من يتحاشى عن هذه الأخلاق الذميمة، وهم الذين يرحمهم الله، أما الكثير فقد تخلقوا بها، ورمى بعضهم بعضاً بالفواحش، ولم يقيموا عليهم حدود الله، فإن القوم الذين لا تقام فيهم الحدود يعدون من شرار خلق الله، لأن إقامة الحدود فيها تطهير لمن يقيمها، وتوسعة رزقه من الله، روي أنه ﷺ قال: «لإقامة حد خير من أن تمطروا أربعين

ورواه ابن أبي عاصم في السنة (١٣٦) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٤٤)، وقد ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (١٢/ ٣٢٦).

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠٦٩) ومسلم في كتاب الزهد (٢٩٩٠) عن أبي هريرة، وفي الشرح زيادة: «والمجاهرات» لم ترد في الحديث.

(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح (٥٢١٩) ومسلم في كتاب اللباس (٢١٣٠) عن أسماء مرفوعاً.

صباحاً»[١].

فإذا لم يصغوا لإرشاد نبيهم عوجلوا في الدنيا بالعذاب الأدنى ولعذاب الآخرة معه الهم من الله، حتى أن من رمى مملوكاً بالزنا وهو بريء منه جلد له بسياط من نار الله، روى أنه ﷺ قال: «من قذف مملوكاً بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال»[٢].

باب في ذكر النهي عن تسمية الفاسق سيداً ولو كان نسبه شريفاً

فإذا كان المملوك يجلد فكيف بالحر إذا رماه أحد بالزنا، ولم يقم عليه فيه الحد لله، فأهل هذا الزمان رموا البريء بالزنا، والمتلوث به برءوه منه خوفاً من سطوته عليهم بما لا يرضي الله بالمعاصي فيهم بقولهم يا سيدي، ولم يبالوا بما قيل أنه يسخط الله، إذ كل أمر مفسق إذا ارتكب يسمى صاحبه فاجراً، ويحرم على كل أن يطلق عليه اسم السيادة لا سيما إن جرب عليه خصال النفاق التي تغضب الله. روى أبو داود أنه ﷺ قال: «لا تقولوا للمنافق: سيد، فإنه إن يكن سيداً فقد أسخطتم ربكم»[٣].

---

(١) رواه ابن حِبَّان (٤٣٩٧) عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «إِقَامة حد بِأرض خير لأَهلها مِن مطر أَربعِين صباحاً» والنسائي في الكبرى (٧٣٥١) موقوفاً وقال: وهذا الصواب.

ورواه ابن ماجة وغيره بلفظ: «حَد يعمل فِي الأرض خير لأَهل الأَرضِ من أن يمطروا ثلاَثِين صَبَاحاً» وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود (٦٨٥٨) ومسلم في كتاب الإيمان (١٦٦٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٩٧٧) وأحمد (٥/ ٢٤٦) عن بريدة مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٧٤٠٥). وفي الشرح: «فإن لم يكن» وهو خطأ.

باب النهي عن الحلف بغير ما شرع في ملة الإسلام

فعلامة السخط المذكور في الدين أنه تكثر أيمانهم بغير الله، فمنهم من يحلف بها في بالأمانة وهو مستحسن ذلك ولا يرتدع فيه بقول رسول الله فإنه قال: (من حلف بالأمانة فليس منا) رواه أبو داود بسند صحيح(١).

ومنهم ملة غير الإسلام كأن يقول: إنه إن لم يكن كذا فهو يهودي أو نصراني أو مجوسي. فإن كان كاذباً في يمينه فهو كما قال، وعد من الكفار بالله، وإن كان صادقاً في يمينه ارتكب بيمينه المحرمة عليه آثاماً عظيمة يضعف إسلامه بها عند الله. روى أبو داود أنه ﷺ قال: «من حلف بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فقال: إني بريء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً»(٢).

باب في ذكر الغيبة وإيذاء المؤمن وإضلال الأعمى

(ش) ومما فيه سخط لهم اغتياب بعضهم بعضاً حتى أداهم ذلك إلى عدم المبالاة بمن يكفرونه بغير بينة من كتاب الله، ولو امتثلوا لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات:١٢] من خيار الناس عند الله، لكنهم خالفوا في ذلك حتى سفك بعضهم دم بعض لأجل دنيا، والقليل المخلص في قتاله لله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال في خطبته يوم النحر: «أي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، فقال: فأي بلد هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى. فقال: فأي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم

---

(١)) رواه أبو داود عن بريدة مرفوعاً. انظر السلسلة الصحيحة (٩٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز (١٣٦٣، ٦٠٤٧، ٦١٠٥، ٦٦٥٢) ومسلم في كتاب (١١٠) عن ثابت بن الضحاك مرفوعاً.

هذا، في بلدكم هذه، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا فليبلغ الشاهد الغائب منكم، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى من بعض من سمعه، ثم قال: ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. قال: اللهم اشهد»[١].

ورويا أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[٢].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قال: إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[٣].

وروى أبو يعلى عن أبي هريرة رفعه: «من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال: كله حياً كما أكلته ميتاً. فيأكله ويكلح ويصيح»[٤].

وروى ابن ماجه وصححه في قصة ماعز أن رجلاً قال لآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم يدع نفسه حتى رجم رجم الكلب، فقال لهما النبي ﷺ: «كلا من جيفة هذا الحمار، فما نلتما من عرض هذا الرجل أشد من أكل هذه الجيفة»[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٦٢٥) ومسلم (٣١٧٩) عن أبي بكرة مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري (٩) عن عبد الله بن عمرو، ومسلم (٥٨) عن جابر.

(٣)) رواه مسلم (٤٦٩٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٤) ورواه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٠٩): (وفيه ابن اسحق وهو مدلس ومن لم أعرفه)، ورواه ابن مردويه في التفسير مرفوعاً وموقوفاً وأبو الشيخ في كتاب التوبيخ من رواية محمد بن إسحاق وقد عنعه. وفي الشرح قلب الحديث فقال: كله ميتاً كما أكلته حياً، وهو خطأ.

(٥) لم أجده عند ابن ماجه، وقد رواه أبو داود عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار فما نلتما من عرض أخيكما آنفا أشد من أكل منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة منغمس

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، بلى إنه كبير، أما أحدهما فكان يغتاب أو كان لا يستبرأ من بوله، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة بين الناس»، وأخرج في الأدب المفرد ونحوه من حديث أبي بكرة ولأبي داود عن جابر وفيه: «أن أحدهما كان يغتاب الناس» ولأحمد بسند صحيح معناه من حديث أبي بكرة، ولأبي داود الطيالسي عن ابن عباس مثله بسند جيد[١].

وعن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة فقال: «لقد قلت كلمة كان يمنعني كذا وكذا لو مزجت بماء البحر لمزجته – أي: أنتنه وغيرت ريحه – قال: وحكيت له إنساناً فقال: ما أحب أني حكيت في إنسان وأن لي كذا وكذا» رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح[٢].

وورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ضل الأعمى»، وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «من حمى مؤمناً من منافق آذاه[٣] بعث الله له ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[٤].

فيها». انظر: ضعيف الجامع (١٣٣٣).

(١) رواه البخاري (٢١١) ومسلم (٤٣٩) عن ابن عباس مرفوعاً. ورواه البُخَارِي في (الأدب المفرد) (٧٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٧٥) والترمذي (٢٥٠٢، ٢٥٠٣) وأحمد (٦/ ١٨٩). انظر: صحيح سنن أبي داود للألباني (١٠/ ٣٧٥).

(٣) ولفظ السنن: «أراه قال: بعث الله..».

(٤) هذان حديثان في باب ما جاء في إضلال الأعمى عن الطريق:

الأول: رواه الحاكم في مستدركه (٨٠٥٢) عن ابن عباس ولفظه: «لعن الله من كمه الأعمى عن السبيل»

باب في ذكر إشاعة الفاحشة

(ش) فيا أيها الناس أنقذوا أنفسكم مما ارتكبتم من هذه الكبائر العظام الموجبة الأهوال واللعنات من الله، فإنها قد اشتملت على فواحش كثيرة قد رسخ في قلوبكم حبها، وشيع ذكرها فيكم، وأنتم لا تبالون فيها بوعيد الله، ألا تسمعون قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور:١٩] فكأنكم رضيتم أن تعذبوا بذلك في الدارين، ولم ينصح بعضكم بعضاً بالحق والتواصي عليه في الله، وما همكم إلا ذكر عيوبكم من كشف العورات، وتتبع العثرات، حتى نسيتم بها ذكر الله،، فلا بد ما ترد عليكم مصورة كنحوها في دنياكم وآخرتكم، فتفضحون بها على قدر سعيكم بالفضوح الذي لم تراقبوا فيه الله. روي أنه ﷺ قال: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه»[1]. أي: في الدنيا والآخرة، والفضوح بها في الآخرة أشد لقوله ﷺ: «فضوح الدنيا هين، والشديد فضوح الآخرة»[2].

وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. وانظر: غاية المقصد في زوائد المسند (١/ ٦٣). ومعنى كمه أخفى وضلل.

الثاني: حديث معاذ بن أنس الجهني، رواه أبو داود، وفي إسناده إسماعيل بن يحيى المعافري مجهول. انظر: ضعيف الجامع (٥٥٦٤).

(١) رواه الترمذي عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ: «يا معشر من أسلم بلسانه و لم يدخل الإيمان في قلبه! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه و لو في جوف رحله». انظر: صحيح الجامع (٧٩٨٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى بنحوه عن الفضل بن عباس مرفوعاً، بلفظ: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة» وهو طويل. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٠): (وفي إسناد أبي يعلى عطاء بن مسلم، وثقة ابن حبان وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أبي يعلى ثقات، وفي إسناد الطبراني من لم أعرفهم).

باب في ذكر الرشوة

فلو يعظ الواعظ مهما يعظ فما همكم إلا دنياكم، قد بعتم آخرتكم بها وأعرضتم عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة:٤١] فاتقيتم غيره، وخشيتموه أشد من خشية الله، وتراشيتم من أجله في أكثر دعاويكم ومنازعاتكم، وما باليتم في ذلك بلعنات الله.

روى أحمد أن النبي ﷺ قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش - يعني - الذي يمشي بينهما»[1].

باب في ذكر هدايا الأمراء بأنها غلول

(ش) فما ذكر قل أن يتحاشى عنه أحد إلا الذي اعتزل الناس، ولم يجد له صاحباً في الله، أو كل من صاحبهم فلا بد له أن يصير صاحباً لأمير، أو صاحب صاحبه الساعي بالرشوة إليه، فيلعن معه من الله، وقد جعلوا الرشوة حيلاً من الهدايا، والعطايا، والمواعيد بها عند انقضاء الدعوة، سواء بحق أو بباطل أمر خالف شرع الله، فقل أن أميراً اطلع على ذلك وعاب عليه وهو في حكم النادر اليوم، وهو الخائف مقام الله، فعلامته أنه يحذر عما له عن ارتكاب ما يضرهم في دنياهم وأخراهم بتعليمه إياهم زواجر آيات الله، من ذلك ذكر ما قاله رسول الله ﷺ لمن استعمله على الصدقة وقد قبل بها هدية من أهلها: «ما بال الرجل نستعمله مما ولانا الله، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي إلي، فهلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه، أما والذي نفسه بيده لا يأخذ أحدكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله بحمله يوم

ورواه العقيلي في الضعفاء (١٥٤١) وقال: (قال علي بن المديني: ليس لهذا الحديث أصل)، ورواه القضاعي وقال العراقي: حديث منكر، وأورده الألباني في ضعيف الجامع (٣٩٨٦).

(١) أخرجه الحاكم وأحمد وسالبزار (١٣٥٣) والطبراني في المعجم الكبير عن ثوبان مرفوعاً بزيادة: (الرائش) وهو منكر، وأما الحديث دون الزيادة صحيح. انظر: السلسلة الضعيفة (١٢٣٥) وانظر: صحيح الجامع (٥١١٤).

القيامة إن كان بعيراً له رغاء، وإن كان بقرة لها خوار، وإن كان شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطه ثم قال: اللهم هل بلغت»[1].

باب في ذكر الهدية على الشفاعة

ومن ذلك قوله ﷺ: «من شفع لأخيه شفاعة فأهدي إليه عليها هدية فقبلها فقد أتى باباً من أبواب الربا» الرواية لأبي داود، وعن ابن مسعود قال: «السحت أن يطلب الرجل الحاجة فتقضى له فيهدى له فيقبل»، وروي أيضاً: «من رد عن مسلم مظلمة فأعطاه عليها قليلاً أو كثيراً فهو سحت. قيل: يا أبا عبد الرحمن ما كنا نرى السحت إلا الرشوة في الحكم. قال: ذلك كفر: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة:٤٤]»[2].

فيجب على الأمير وجوباً متأكداً أن يعظ جلساءه وأهل مشورته على أن لا يأخذوا الرشوة إذا هم شفعوا عنده في حكم كبر أو صغر لتتقوى سلطته فيهم بعدل الله، فإنه إذا لم يفعل ذلك وقد علم منهم أخذ الرشوة لواحد منهم لحقته معهم لعنات الله، فعلى قدر ما تجرى الرشوة عليهم على الأحكام ولو بالحق تكون اللعنات الموجبة لهم السحق والمحق في الدنيا والعذاب الأكبر يوم الله، روى الطبراني أنه ﷺ قال: «الراشي والمرتشي في النار»[3].

فكيف إذا كانت الرشوة في الأحكام الباطلة التي هي القوانين المخترعة من ظلمة أمراء الجور المضادين حكم الله، فقد روي أنه ﷺ قال: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الهبة (٢٥٩٧) والأيمان والنذور (٦٦٣٦) ومسلم في كتاب الإمارة (١٨٣٢) عن أبي حميد الساعدي وليس فيهما الزيادة الواردة في الشرح بقوله: «قال: ألا هل بلغت؟ قلنا: نعم. ثم قال: اللهم اشهد».

(٢) رواه أبو داود في كتاب البيوع (٣٥٤١) وأحمد في المسند (٥/ ٢٦١) عن أبي أمامة. انظر: صحيح الجامع (٦٣١٦). وأما أثر ابن مسعود فانظر: تفسير الطبري (٦/ ٢٤٠)، تفسير البغوي (٣/ ٥٨).

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٤٧): (رواه البزار، وفيه من لم أعرفه عن عبد الرحمن بن عوف)، وانظر: ضعيف الجامع (٣١٤٦).

فقد ضاد الله في أمره»، وفي رواية لأبي داود: «من أعان على خصومة في باطل فقد باء بغضب من الله»[(١)].

باب في ذكر الغلول

ويجب عليه وجوباً مؤكداً أيضاً أن يحذر عماله من الهدايا التي يرتشون بها لأجل أن يغضوا النظر عن خرص الزكوات، أولئك يشدد عليهم فيها الخرص، كما هو دأب الخائنين في أمانة الله، فقد روى أبو يعلى أنه ﷺ قال: «هدايا العمال حرام كلها»[(٢)].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «هدايا العمال غلول»[(٣)].

وروى عبد الرزاق أنه ﷺ قال: «الهدايا للأمراء غلول»[(٤)].

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «الهدية إلى الإمام غلول»، وروى أيضاً أنه ﷺ قال: «الهدية تذهب بالسمع والقلب والبصر»[(٥)].

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «الهدية تعور عين الحكيم»[(٦)].

وقال: «وأخذ الأمير الرشوة غلول»، وقال: «أخذ الأمير الهدية سحت، وقبول القاضي الرشوة كفر» رواه أحمد[(٧)].

---

(١) رواه أبو داود عن ابن عمر، وفيه: «ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع»، وهو صحيح. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٧٠).

(٢) حديث أبي حميد الساعدي رواه البزار من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين وهي ضعيفة.

(٣) حديث أبي حميد الساعدي مرفوعاً رواه أحمد.

(٤) حديث جابر رواه عبد الرزاق في المصنف (١٤٦٦٥).

(٥) أولهما حديث ابن عباس رواه الطبراني في الأوسط. وفيه عثمان بن سعيد وهو ضعيف.
وثانيهما حديث عصمة رواه الطبراني في الكبير وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف جداً.

(٦) رواه الديلمي في الفردوس عن ابن عباس، تعور أي تصيره أعور لا يبصر إلا بعين الرضى فقط، وتعمى عين السخط. انظر: فيض القدير للمناوي (٦/ ٣٥٧).

(٧) رواه أحمد في الزهد عن علي مرفوعاً. قال المناوي: إسناده جيد.

وكثير ما ورد في الغلول بأنه يوجب نار الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

(ش) أي: يحمله على ظهره يشتعل عليه ناراً، ويساق به إلى النار، وروى أحمد أنه ﷺ قال: «من غل بعيراً أو شاة أتي به بعمله يوم القيامة»[(١)].

وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «من كتم على غال فهو مثله»[(٢)].

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «الغلول من جمر جهنم»[(٣)].

أي: إنه يصورنا أو يعذب به صاحبه على قدر ما أصاب منه ولم يجد ما يكفره من توبة مصححة الشروط في شرع الله، فإذا لم يجده عذب به مدة في النار، فإن مات على ذرة من إيمان أخرج بها من النار، وإلا خلد فيها مع الكافرين.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: (لما فتحت خيبر انطلقنا إلى وادي ومع رسول الله ﷺ عبد، فلما نزلنا الوادي رمي بسهم فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله، فقال: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها من الغنائم لم يقسمها المقاسم، إنها لتشتعل عليه ناراً، ففزع الناس فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: يا رسول الله! أصبت هذا يوم خيبر، فقال: شراك أو شراكان من نار»[(٤)].

(ش) فعلم من نص الأحاديث المذكورة في الغلول أن الأمراء والعمال إذا اعتادوا أخذ الرشوة والهدايا على الحكم عدوا من الغالين المساقين بغلولهم إلى نار الله، فليحذر كل أمير

---

(١) حديث عبد الله بن أنيس صحيح. انظر: صحيح الجامع (٦٤٠٩).

(٢) حديث سمرة عند أبي داود ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (٥٨١٢).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس.

(٤) حديث أبي هريرة رواه البخاري في باب غزوة خيبر (٣٩٠٨) ومسلم باب غلظ تحريم الغلول (١٦٦).

وعامل له من الغلول، ولا يأخذ من الغنائم والصدقات إلا ما فرضه له الله، فمتى زاد على ما فرضه الله له فهو غلول، يأتي به يحمله على ظهره يشتعل عليه ناراً، ويحشر به إلى جهنم التي كلما خبت زيدت سعيراً بغضب الله.

فطوبى للأمير الذي يستمع لذلك، وينهى عماله عن الغلول ونفسه حتى يعد من أولي العدل في الله، وطوبى لمن استمع لقوله في ذلك حتى يعد من خير جلسائه في الله، فإن طاعة أولي الأمر في الحق متأكدة الوجوب، وقد حرض الله عليها بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء:٥٩].

باب في ذكر الطاعة للأمراء

(ش) أي الذي يصدق بوجود الله وإنجاز وعده ووعيده في اليوم الآخر رد ما تنازع فيه إلى القرآن وأحاديث رسول الله، فأولئك هم الأخيار حقاً وأولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون بخير الدارين لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء:٥٩] أي: أجراً حسناً في يوم يأتي تأويل ما قاله الله، فمن أراد الجزاء الحسن في تأويله له فليتق الله ما استطاع بكتاب الله، قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ [التغابن:١٦] أي: للإمام إذا أمر بطاعة الله. روى أبو داود والنسائي أن النبي ﷺ قال: «الغزو غزوان: فأما من غزا ابتغاء وجه الله، وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة، وياسر الشريك فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزا فخراً وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض فلن يرجع بالكفاف»[١].

(ش) أي: لا له ولا عليه، بل يرجع متحملاً أوزاراً كثيرة على قدر فخره، وسمعته،

---

(١) حسن رواه أبو داود في كتاب الجهاد (٢٥١٥) والنسائي في كتاب الجهاد (٣١٨٨) وأحمد (٥/ ٢٣٤).
انظر: صحيح الجامع (٤١٧٤).

ومعصية الإمام، وإفساده في أرض الله، لا سيما إن عصى الإمام فيما أمره به حبه أو كرهه إذا كان موافقاً لشرع الله، أما إذا كان مخالفاً الشرع فلا سمع ولا طاعة لقوله ﷺ: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بالمعصية فلا سمع ولا طاعة» رواه البخاري ومسلم(١).

باب في ذكر الخروج عن الجماعة

(ش) أي: لا يسمع له ويطيع إلا في الحق المبين من كتاب الله، وأحاديث رسول الله، فمن خالف إمامه في الحق المبين فقد شاق أميره الذي هو خليفة رسول الله أحاديث رسول الله فمن قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء:١١٥] فليحذر المرء على نفسه من معصية إمامه، واتباعه غير شرع الله، فلو حذر الناس ما ذكروا واتبعوا ما أمروا به لاستقاموا على طريقة الله، لكنهم تفرقوا واختلفوا فيما جاءهم من بينات هدى الله، فأغرى الله بينهم العداوة والبغضاء، وأمر عليهم أمراء الجور الذين أطاعوهم في معصية الله، وذلك في قوله ﷺ: «كما تكونون يولى عليكم»(٢).

فيفهم من الحديث أن الذين تجمعوا على الاعتصام بحبل الله ولم يتفرقوا عنه يولى عليهم خيارهم، ويرضى عنهم الله، والذين تفرقوا عنه واختلفوا عليه يولى عليهم أشرارهم، ويسخط عليهم الله.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد (٢٩٥٥) والأحكام (٧١٤٤) ومسلم في كتاب الإمارة (١٨٣٩) عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) ضعيف. أخرجه الديلمي عن أبي بكرة مرفوعاً. انظر: السلسلة الضعيفة (١/ ٤٩٠) ضعيف الجامع (٤٢٧٥).

لكن من ابتلي بإمام جائر وجب عليه الصبر فيما حكم عليه من جوره، ولم يستطع أن يخالفه في الله، ولا يجوز أن يخرج عليه في فرقة تقاتله إلا أن يكفر كفراً صريحاً بالله. روى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «من كره من أميره شيئاً فليصبر فإنه من خرج على السلطان شبراً مات ميتة جاهلية»(١).

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «ستكون بعدي أئمة لا يهتدون بهديي، ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس في سيما الشر»، وفي رواية قال حذيفة: قلت: كيف أصنع إن أدركتهم؟ قال: «تسمع وتطيع، وإن أخذ مالك فاسمع وأطع»(٢).

(ش) أي: لأمره في أخذ ماله ولو خالف شرع الله لكن ما دام يقدر أن يخالفه في المعصية بغير ضرر عليه ولا على من يلوذ به وجب عليه أن يعصيه لقوله ﷺ: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف». روى البخاري وأحمد أنه ﷺ قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(٣).

ولأحمد أيضاً أنه ﷺ قال: «من أمركم من الولاة بمعصية فلا تطيعوه» وله أيضاً أنه ﷺ قال: «لا طاعة لمن لم يطع الله»(٤).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن (٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣) ومسلم في كتاب الإمارة (١٨٣٥) عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٤٧) عن حذيفة.

(٣) أولهما حديث علي رواه البخاري ومسلم، والثاني رواه أحمد والحاكم عن عمران والحكم بن عمرو الغفاري. انظر: صحيح الجامع (٧٥٢٠).

(٤) رواه أحمد عن أبي سعيد. وهو حسن. انظر: صحيح الجامع (٦٠٩٩) والرواية الأخرى عن أنس. انظر: صحيح الجامع (٧٥٢١).

ففهم من معنى الأحاديث المذكورة أن الطاعة إذا خالفت الشرع حرمت إلا إذا اضطر إليها ضرورة توجب قتلاً أو أمراً لا يتحمل عادة جازت لقوله: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة:١٧٣] أما إذا تحمل عادة كأخذ مال ظلماً وجب تسليمه لدفع ضرر، وإذا لم يتحمل عادة لفحشه كزنا وشرب خمر وقتل نفس فلا، وكل أبصر بنفسه فيما ذكر ويجاب عليه يوم الله.

فعلى كل حال يحرم الخروج على الإمام ولو عصى مهما عصى إلا أن يكفر جهاراً بالله، بل من خرج عليه يقاتله يريد أن يفرق من أجله جماعة المسلمين وجب عليهم قتاله حداً في الله، لأن ذلك مفسدة عليهم فلا يفعله إلا من هو أظلم منه جوراً عليهم لطلبه الإمارة التي من طلبها وكل إليها، ولم يعدل فيها لله. روي أنه ﷺ قال: «من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه»(١).

هذا إذا لم يندفع إلا بالقتل، وإذا أمكن اندفاعه بالصلح وجب عليهم أن يسعوا بالصلح لقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ ﴾ [الحجرات:٩].

فواجب على أهل الحل والعقد من المسلمين أن يسعوا بالقسط بين الناس ويقيموا عليهم أحكام الله، فإذا لم يفعلوا أثموا، وتزايد فيهم الفساد وباءوا بغضب من الله، فإن غلبوا ولم يقدروا على التعديل سقط الحرج عنهم، وبقي الحرج على الذين صحبوا الجائر في فساده، وعاونوه عليه، ولم يبالوا فيه بوعيد الله، وهم الذين خالفوا قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢٥ ﴾ [الأنفال:٢٥].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٥٢) عن عرفجة الأشجعي.

باب في ذكر اتقاء الفتن

فمن امتثل للتقوى لأجل أن لا يصاب بفتنة الذين ظلموا منهم خاصة لم يصب بقارعة الله، ومن لم يمتثل التقوى أصيب بما يصاب به الظالمون العاتون على الله، هكذا جرت عادة الله أن يعجل العقوبة على أهل الجور والبغي كما وردت بذلك أحاديث بكثرة عن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الكهف:٥٩]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الطلاق:٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:٦٥]، ونحوها من الآيات الزاجرة الظالمين عن ظلمهم ليتوبوا إلى الله، فإذا تمادوا على ظلمهم ولم ينزجروا بها أذاق الله بعضهم بأس بعض على قدر إصرارهم على معاصي الله.

فمن لم يتفقه لما ذكر كله ساءت عاقبته وباء بغضب من الله. روى مسلم عن ابن عمر قال: كنا في سفر فنزلنا فنادى منادي رسول الله ﷺ: «الصلاة جامعة، فاجتمعنا، فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي. هذه مهلكتي، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر، ويحب أن يأتي إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء رجل ينازعه فاضربوا عنق الآخر»(١).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٤٤).

(ش) فقد تقدم بيان المنازع إن لم يندفع إلا بالقتل فيقتل، وإلا وجب السعي في الصلح لله، فمن قدر اليوم على الصلح فليفعله ما استطاعه لله، لكن أكثر أهل هذا الزمان ما نظرهم إلا لدنيا متحايلين على جلبها بدين الله، فيا ويل من هذا حاله من الفتنة العمياء التي يسأ بها من الله، فمن باشر الإيمان قلبه يخاف أن يهلك بها لارتكاب أهلها المناكر الكثيرة التي تغضب الله، فهو الذي يستقر الإيمان في قلبه لإنكاره المنكر إلى أن يموت عليه مخلصاً به لله، وهو الذي يحب أن يأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه من خير الله، وهو الذي يصدق في بيعته لإمامه في يسره وعسره ومراقبته لله.

ومن لا يباشر الإيمان قلبه لا يخاف أن يهلك في الفتنة، ولو يرى مهما يرى من المناكر الموجبة سخط الله فهو الذي لا يستقر الإيمان في قلبه لارتيابه في الوعد والوعيد من الله، وهو الذي لا يحب للناس إلا الشدة ليستجلب منهم دنيا، ويدعي أنها لدين الله، وهو الذي لا يصدق في بيعته لإمامه إلا في اليسر الذي ينال به عرضاً من مال الله، أما في العسر فيتحايل فيه إن وجد قوة مع إمامه ثبت وإلا جنح إلى ملجأ يقاتل مع من قاوم إمامه، ولو بأمر يغضب الله فيكون في منزلة لمن حذر الله منهم بقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل:٩٢] أي: أقوى فينحاز إليها بغير مراقبة فيها بحكم الله ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [النحل:٩٢] فما يصنع النكث إلا من لا خير فيه، ولا بد ما يذوق وباله يوم تبيان الله وذلك حين يسأل أهل كل قرن عما كانوا يعملون، فشرهم الذين يتخذون عهودهم في بيعة الإمام دخلاً بينهم في نكث حد الله، فإن وجدوا معه قوة ثبتوا على عهدهم معه وإلا نقضوه وما بالوا فيه بوعيد الله قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل:٩٤] فما يصنع نقض

العهد إلا الذي آثر على آخرته دنياه التي نكث بها عهد الله، ولو أيقن بتحذير الله في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل:٩٥] لاختار الآخرة على الدنيا، ولثبت على عهد الله، ولكنه ارتاب في البعث والوعد والوعيد فيه من الله، أما من أيقن بذلك سارع إلى الخيرات، وترك المنكرات، وبادر بالتوبة النصوح قبل أن تقوم الفتن على ساق تحير كل عاقل حتى لا يعرف يدبر لها ملجأ يكنه عنها إلا التسليم لله، ولا يعرف التسليم إلا العامل بكتاب الله وسنة رسوله كما قال ﷺ: «إن الفتنة تجيء فتنسف العباد نسفاً، فينجو منها العالم بعلمه»[١].

فنحن الآن فيها وهي تتزايد بتزايد المنكر وظلم الضعيف لقوله ﷺ: «اشتد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله»[٢].

فإني ناصح لأهل زماني أن يبادروا إلى التوبة قبل اشتداد غضب الله. روى مسلم أنه ﷺ قال: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٣].

فهذا حال من آثر دنياه على آخرته حتى ساقه ذلك إلى الكفر بالله. روى أحمد والحاكم أنه ﷺ قال: «حبان لا يجتمعان في قلب: من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[٤].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (١٥١٣).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس عن علي وهو ضعيف جداً. انظر: ضعيف الجامع (٨٦١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١١٨) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٤) رواه أحمد عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ: «من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى» ورواه الحاكم في المستدرك. قال الذهبي في التلخيص: صحيح، ورواه البزار والطبراني. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٤٧٤): (ورجالهم ثقات).

فمن أنصف من نفسه اليوم عرف أنه محب للدنيا مؤثرها على آخرته فلا يرضى أن يكون حطباً لنار الله؛ لأن الله قال: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) ﴾ [النازعات:٣٧-٣٩] فيسارع إلى مغفرة من ربه بالتوبة من اللهو واللعب، وحب زينة الدنيا، والتفاخر بها في خلق الله، فمن فعل ذلك اليوم كان من المبشرين بقوله ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي» رواه مسلم[١].

والمراد بالهرج الكذب والقتل، وقد كان من بعد قتل عمر رضي الله عنه، ولم يزل يتزايد حتى صارت القلوب به لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكراً إلا باللسان لما يوافق الهوى، وما لا يوافق لا ينكر في الله، روى البخاري ومسلم عن حذيفة أن عمر قال: «أيكم يحفظ قول رسول الله في الفتن؟ قلت: أنا، قال: هات إنك عليه لجريء، قال: فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج موج البحر، قلت: وما لك وما لها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باب مغلق، قال: أيفتح الباب أم يكسر؟ قلت: بل يكسر، قال: ذلك أجدر أن لا يغلق، فقلت لحذيفة: ألا إن عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، فهب نسأله من الباب فقلت لمسروق: اسأله فسأله فقال: عمر».

وروى مسلم عن أبي بكرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ أن قال: «ستكون فتناً القاعد فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي فيها ألا إذا نزلت ودحت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، قال رجل: يا رسول الله أرأيت من كان لا له الإبل ولا الغنم ولا الأرض؟! قال: يعمد إلى سيفه فيدقه على ثم لِيَنج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت.. اللهم هل بلغت.. اللهم هل بَلغت. قَال: فَقَالَ

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١١٨) عن معقل بن يسار مرفوعاً.

رجل: يا رسول الله! أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار»[(١)].

ولابن ماجه عن سعد: «قلت: يا رسول الله! أرأيت إن دخل علي بيتي وبسط إلي يده ليقتلني؟ فقال: كن كخير ابني آدم، وتلا هذه الآية: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة:٢٨]»[(٢)].

(ش) فما ذكر من الفتن قد انفتح بموت عمر، ولم تزل تتزايد إلى الآن، وأرجو الله أن تخمد على يد القائمين بالقسط شهداء لله، فقد روي أنه ﷺ قال: «خير هذه الأمة أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر»[(٣)].

باب في ذكر تعظيم ذنب قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق

فقد قالت العرب: دين دين، ولم تزل يتقوى قولها بذلك حتى يظهر بهم الدين الخالص لله، لكنهم ما داموا يهتمون بالسؤال عن الصغيرة وينهون عنها، ولا يبالون بارتكاب الكبيرة فهم على ضعف في دين الله حتى إذا تناهوا عن الكبيرة لا سيما اكتساب المال الحرام تقوى دينهم، ونصروا على البغاة والكفار بالله.

---

(١) حديث حذيفة رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان، وحديث أبي بكرة رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الفتن (٤٢٥٧) والترمذي في كتاب الفتن (٢١٩٤) وأحمد (١/ ١٨٥) صحيح كما في الإرواء (٢٥٤١)، وقد تبع الشارح الأصل في قوله: ولابن ماجه، والصحيح ما ذكرناه.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ. ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٣) عن عروة بن رويم مرسلاً: «خير هذه الأمة أولها وآخرها، وأولها فيهم رسول الله، وآخرها فيهم عيسى بن مريم، و بين ذلك نهج أعوج ليس منك ولست منهم». انظر: ضعيف الجامع (٢٩٣٠).

روى مسلم عن سالم أن عبد الله بن عمر قال: يا أهل العراق ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الفتنة تجيء من هاهنا. وأومأ بيده نحو المشرق، من حيث يطلع قرن الشيطان وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ فقال الله تعالى له: ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٤٠][(١)].

(ش) فمن لا يتحرى في غزوه بما حكم عليه الشرع في كفار أو بغاة وقع في الفتنة التي سئل عنها يوم الله، فإن الله قال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء:٩٣] وروى البخاري ومسلم عن المقداد رضي الله عنه قلت:»يا رسول الله! أرأيت إن لقيني رجل من الكفار فاقتتلنا فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أأقتله؟ قال: لا تقتله فإنك إن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها[(٢)].

ورويا عن أسامة بن زيد قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقات من جهينة، فصبحنا القوم فهزمناهم، فلحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف عنه الأنصاري فطعنته برمحي فقتلته، فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لي: يا أسامة! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ قلت: يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً. فقال: أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم».

وفي رواية أنه قال: «أفلا شققت عن قلبه» وفي رواية لمسلم: أنه قال: «يا رسول الله استغفر لي. فقال: كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!» فلم يزد على أن يقول:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن (٢٩٠٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب المغازي (٤٠١٩) الديات (٦٨٦٥) ومسلم في كتاب الإيمان (٩٥).

فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!»[١].

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»[٢].

(ش) فالحاصل أن الحكم في هذا الشأن اليوم صعب جداً، وهو مزلة اللسان والقدم في حكم الله، فواجب على الإمام أن يتبين في شأنه حتى لا يقاتل إلا من أعلن بكفره بالله، أو يقاتل البغاة على بغيهم حتى يفيئوا عن بغيهم، ويقبلوا الصلح في الله.

فمتى أعلن الكافر إسلامه بنطق الكلمة وبكف من يعبد من دون الله وجب على المقاتلين أن يكفوا أيديهم عنه، ويؤمنوا بعهد الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾ [النساء:٩٤] أي: الإيمان لست مؤمناً ﴿ تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النساء:٩٤] أي: لأجل عرض من الدنيا يتعلل عليه به فيقتله، فلا يفعل ذلك إلا الذي لا يبالي بمحاجة لا إله إلا الله، لكن أهل هذا الزمان لئام لا تعرف لهم حالة يصدقون بها في الله، وكذا أمرنا بالظواهر، والله يتولى السرائر، والحساب عليها يوم الله، قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾ [الطارق:٩] أي: تختبر بما فيها من خير أو شر (فما له من قوة ولا ناصر) أي الإنسان الحيلي الكفور لا يجد له ما يتقوى به على معاصيه ولا ناصر يشفع له عند الله لا سيما الذي حمل السلاح على من عرف بالإسلام فإنه لا يشفع له نبي. روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا»، «ومن غشنا فليس منا»[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي (٤٢٦٩، ٦٨٧٢) ومسلم في كتاب الإيمان (٩٦ ـ ٩٧ – ٩٨) من حديث جندب بن عبد الله.

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٣) عن ابن عمر مرفوعاً، ولم أجده عند مسلم.

(٣)الأول حديث ابن عمر مرفوعاً رواه البخاري (٦٣٦٦ ـ ٦٥٤٣ ـ ٦٥٤٤) ومسلم (١٤٣ ـ ١٤٥). زاد مسلم (١٤٦) من حديث أبي هريرة: «من غشنا فليس منا».

باب في ذكر تكثير سواد من أضره نار في الفتن إذا هو حمل السلاح لإقامة جبروته

(ش) أي: أنه لا يعد من الذين يشفع لهم رسول الله، فإنه لا يشفع إلا لمن علم أنه قد أرضى الله، وهو الذي يموت على الرضا، وصاحب الغش والمنكر والخديعة لا يعد من الذين يرتضيهم الله، وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «من غشنا فليس منا، والمكر والخداع في النار»[١].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي»[٢].

روى الديلمي أنه ﷺ قال: «من غش أمتي فعليه لعنة الله»[٣].

فواجب على كل مسلم أن لا يغش مسلماً بمكر وخديعة خوفاً على نفسه أن يصلى بهما نار الله، وأن يسعى بالإصلاح مهما استطاع، ويطلب التوفيق في ذلك من الله، ولا يكون ما ذكر إلا ممن تجنب وانتصر لجبروته، وقاتل عليه وعلا به على خلق الله، أما المصاحب له لا سيما إذا هو رضي وتابع لا يكون منه إلا الإفساد والعلو به في أرض الله، روى البخاري عن

---

(١) حديث ابن مسعود رواه الطبراني في الكبير و الصغير وابن حبان في صحيحه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٩): (ورجاله ثقات وفي عاصم بن بهدلة كلام لسوء حفظه)، وتعقبه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٦٤) فقال: (والمتقرر فيه عند أهل العلم أنه حسن الحديث يحتج به لا سيما إذا وافق الثقات).

(٢) رواه أحمد (٥١٩) عن عثمان بن عفان مرفوعاً، والترمذي (٣٩٢٨) وقال: (حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حصين بن عمر الأحمسي، وليس عند أهل الحديث بذاك القوي). قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ١٢٢): (بل هو كذاب عند غير واحد منهم).

(٣) حديث: «من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قيل: يا رسول الله! وما غش أمتك؟ قال: أن يبتدع بدعة يحمل الناس عليها» أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جداً، انظر: تخريج أحاديث الإحياء (١/ ١٨٦).

محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قَال: «قطع على أهل المدينَة بعث فَاكتتِبت فيه، فلقِيت عكرمة مولى ابن عباس فَأَخبرته، فنهاني عن ذَلك أَشد النهيِ ثم قَال: أَخبرنِي ابن عباس أَن ناساً مِن المسلمِين كَانوا مع المشركِين يكَثرون سواد المشركِين على عَهد رسول الله ﷺ يأتِي السهم فَيرمى به فَيصيب أحدهم فَيقتله أَو يضرب فَيقتل فَأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء:٩٧]»[١].

(ش) أي: بتكثير سواد المشركين أو بغاة المسلمين فتقام الحجة لهم أو عليهم من الله، فمن كان منكراً منكرهم ولو بقلبه - وقد غصب - نجا من عذاب الله، ومن كان راضياً بمنكرهم وتابع لهم عذب بعذابهم على قدر عتوهم في النار، وروي أنه ﷺ قال: «ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا» رواه مسلم وأبو داود، وفي رواية لهما: «سيكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن كره برئ، ولكن من رضي وتابع»[٢].

(ش) فعلى العاقل أن يتجنب الظلمة وأعوانهم ما استطاع خوفاً من أن تقام عليه بهم حجة الله، ولا يكون همه إلا الجهاد والهجرة إلى ما يرضي الله، فأفضل المجاهدين والمهاجرين من هجر ما نهى الله عنه، فإذا بايع أحداً فلا يبايعه إلا مخلصاً لأجل دين الله، فأفضل المبايعة مبايعة الإمام العادل على الهجرة إليه، والجهاد معه في سبيل الله لكن بشرط رضا الوالدين، وإلا فخدمتهما فرض واجب، وأكثر ثواباً عند الله. قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان:١٤].

(١) رواه البخاري (٤٢٠٣).

(٢) رواه مسلم (٣٤٤٥) وأبو داود (٤١٣٣) عن أم سلمة مرفوعاً.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر ﵄ قال: أقبل رجل إلى النبي ﷺ فقال: «أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: فهل من والديك أحد حي؟ قال: نعم، بل كلاهما. قال: وتبتغي الأجر من الله. قال: فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»[(١)].

روى أحمد والنسائي أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك. قال: فهل لك من أم؟ قال: نعم، قال: فالزمها فالجنة تحت قدميها»[(٢)].

وروى البخاري ومسلم: أن رجلاً قال: «يا رسول الله من أحق الناس بصحبتي؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك»[(٣)].

وروى البخاري أنه ﷺ قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، واليمين الغموس»[(٤)].

(ش) يا أيها الناس كونوا على حذر من سوء هذه الكبائر الأربع الموجبة نار الله، فإن من لم يحذرها جرته إلى كبائر كثيرة، يتزايد بها العذاب عليه مع الخلود في النار التي كلما خبت زيدت سعيرا من الله، أولاها الشرك الذي به سبعون باباً لا يعرفها إلا المجاهد نفسه في الله، فمتى عرف أكبره باباً وجاهده بالتجنب عنه عرف أصغره باباً وجاهده في الله، فيصبح مؤمناً حقاً عارفاً بأبواب الإيمان كمالاً التي أكملها باب الإحسان في عبادة الله، فيحسن عبادة ربه

---

(١) حديث ابن عمرو مرفوعاً رواه البخاري في كتاب الجهاد (٣٠٠٤) والأدب (٥٩٧٢) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٤٩). وفي الشرح ابن عمر تبعاً للأصل وهو خطأ.

(٢) رواه أحمد في المسند (١٤٩٨٩) والنسائي في كتاب الجهاد (٣١٠٤) وابن ماجه في كتاب الجهاد (٢٧٨١).

(٣) حديث أبي هريرة رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٩٧١) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٤٨).

(٤) حديث ابن عمرو رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور (٦٦٧٥، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠).

كأنه يراه، ويستحي منه حياء يزهده في الدنيا، وينيله ولاية الله، فمتى أحسن عبادة ربه أحسن خدمة والديه وبرهما، فيخاف من قتل النفس المؤمنة أشد خوفاً، ويحذر من قتلها إلا بحق في الله، ويكون حذراً من اليمين ولو بالصدق إلا إذا اضطر إليها بصدق في الله، فمتى تحقق بما ذكر تكون مبايعته للدين صادقة يريد بها ثواب الله، أما من لم يتحقق بما ذكر فيما يعد للدين معللة يحب جنيا يصبها بمكروه وخداعه وكذبه على قدر نفاقه المبغوض لدى الله.

فأكثر الناس اليوم مبايعتهم لدينا يصيبونها متحايلين عليها بإمارة وغراضة وشطارة وخداعة مخالفة لشرع الله، فمن نال منهم ذلك وفى ببيعته واستقر وأظهر نصحاً لأميره، وهو غاش لرعيته لا يرعوي فيهم بشيء من كتاب الله، ومن لم ينل منهم ذلك لم يف ببيعته وجمح إلى ملجأ يشن به الغارة على من قام بدين الله، فقل من يفي ببيعته إذا لم يصب بها ديناً، وهو المتحقق فيما ذكرناه في المجاهد نفسه في الله، أما غيره فعلله كثيرة على قدر حبه للدنيا التي هي رأس كل خطيئة حتى الكفر بالله.

فأكبر علة تضره في دنياه وأخراه مبايعة إمام الحق على الحق لأجل دنيا يصيبها قد بنى عليها أمره في سريرته المفسدة عليه دين الله، سواء نالها أو لم ينلها فلا أبغض منه إنساناً عند الله، هذا في مبايعة إمام الحق على الحق، فكيف في مبايعة إمام الباطل على المكوس والرشوة والخيانة في مال الله، روى أحمد البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً سلعاً بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا وصدقه وهو على غير ذلك، ورجلاً بايع إماماً لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه منها وفى، وإن لم يعطه منها لم يف»[١].

---

(١) حديث أبي هريرة رواه البخاري (٢٤٧٦ ـ ٦٦٧٢) ومسلم (١٥٧).

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «الدنيا غرس المنافقين والآخرة غرس المتقين»[١].

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما ابتغاء[٢] وجه الله»[٣].

فواجب على كل مسلم أن يتعلم العلم ليعلم به ما له وعليه، وما هو المذموم من الدنيا، وما هو المحمود فيها عند الله، فإن النبي ﷺ بعث معلماً الناس مكارم الأخلاق، وهذا أهمها حتى يخلصوا في عبادة الله، فمن امتثل لما دل عليه سعد، ومن خالف ما دله شقي، وأصابه الذل والصغار في الدنيا ويوم الله، روى أحمد أنه ﷺ قال: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم»[٤].

وروى أحمد والبخاري والترمذي أنه ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع شوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل خير من الدنيا وما عليها»[٥].

وروى أبو الشيخ والبيهقي أنه ﷺ قال: «إن صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة، ونفقته للدينار والدرهم أفضل من سبعمائة دينار ينفقه في غيره»[٦].

وروى البخاري أنه ﷺ قال له رجل: «يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد، قال:

---

(١) الديلمي في الفردوس ولم أقف على سنده.

(٢) هكذا، والأصح: ما ابتغي به.

(٣) رواه الطبراني عن أبي الدرداء. انظر: ضعيف الجامع (٣٠١٨).

(٤) حديث ابن عمر رواه أحمد. انظر: صحيح الجامع (٢٨٣١).

(٥)) حديث سهل بن سعد رواه البخاري (٢٦٧٨) وأحمد (٢٢٩٢٣) والترمذي (١٥٧٨).

(٦) رواه أبو الشيخ والبيهقي في الشعب عن أبي أمامة مرفوعاً وهو ضعيف جداً. انظر: «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (١١/ ٦٥٥).

لا أجده، هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر»[١].

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «موت الرجل في الغربة شهادة، وإذا احتضر ورمى ببصره عن يمينه وعن يساره فلم ير إلا غريباً، وذكر أهله وولده وتنفس فله بكل نفس يتنفس به يمحو الله به ألفي ألفي سيئة، ويكتب له ألفي ألفي حسنة، ويطبع بطابع الشهداء إذا أخرجت نفسه»[٢].

فهل يسمع بهذه الأحاديث أحد فيختار الدنيا على الآخرة إلا المرتاب الذي لم يدخل قلبه الإيمان بالله، فلا بد ما يرى وبال ما اختاره من الدنيا، ويرى عظيم ثواب من اختار الآخرة على الدنيا، ونال به رفيع الدرجات عند الله، روى أبو داود والحاكم أنه ﷺ قال: «يا عبد الله بن عمرو وإن قاتلت صابراً محتسباً بعثك الله صابراً محتسباً، وإن قاتلت مرائياً مكاثراً بعثك الله مرائياً مكاثر، يا عبد الله بن عمرو! على أي حالة قاتلت أو قوتلت بعثك الله على تلك الحالة»[٣].

وروي أنه ﷺ قال: «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا ثلاثة دنانيره التي سمى»، وروى الحاكم والبيهقي أنه ﷺ قال: «أعطها إياه فإنها حظه من غزاته»[٤].

---

(١) حديث أبي هريرة رواه البخاري (٢٢٥٧).

(٢) أخرجه الطبراني عن ابن عباس (١١٠٣٤). قال الهيثمي (٢/ ٣١٨): (فيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك).

(٣) حديث ابن عمرو رواه أبو داود (٢٥٢٧).

(٤) حديث يعلى بن أمية، رواه أبو داود والحاكم (٢٥٣٠) وعنه البيهقي (٦/ ٣٣١). انظر: ضعيف الجامع (٦٣٩٧) وفيه أنه استأجر أجيراً للغزو وسمي له ثلاثة دنانير فقال النبي ﷺ: «ما أجد له.....في». انظر: صحيح الجامع (٥٥١١).

وروى أحمد ومسلم أنه ﷺ قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة من أهل الجنة فيقول الله له يوم القيامة: كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربي خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: يا رب ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلا الدنيا فأقتل في سبيلك عشرات مرات، لما يرى من فضل الشهادة في سبيل الله، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب شر منزل، فيقول: أتفتدي بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول: أي رب نعم، فيقول: كذبت. سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار»(١).

فما ذكر من وصف الشقي في هذا الحديث هو مشاهد فيمن يدعي الصدق بلسانه والحال كذبه في الله فيقول: لو أعطى الدنيا بما فيها لن اختارها على الآخرة، وهو يتعاطى ما يحرمه من جنة الله كأكل الحرام، والسحت، والرشوة، والمكس، والخيانة في مال الله. روى العسكري في المواعظ أن علياً وعظ ابنه الحسن بقوله: (يا بني! كم قد رأيت من قيل له: تحب أن تعطى الدنيا بما فيها مائة سنة بلا آفة ولا أذى لا ترى فيها سوء، ويكون آخر أمرك عذاب الأبد، فلا يقنع بها ولا يريدها، ورأيته قد أهلك دينه ونفسه باليسير من في الدنيا، وهذا من كيد الشيطان وحبائله، فاحذر مكيدته وغروره، فإياك أن تغتر بما ترى من إخلاد أهلها إليها، وتكالبهم عليها ككلاب عاوية، وسباع ضارية، يهر بعضهم إلى بعض، ويعتز عزيزها ذليلها، وكثيرها قليلها، قد أضلت أهلها عن قصد السبيل، وسلكت بهم طريق العمى، وأخذت بأبصارهم عن منهج الثواب، فتاهوا في خيرتها، وغرقوا في فتنتها، واتخذوها ربا، فلعبت بهم ولعبوا بها، ونسوا ما وراءها، فإياك يا بني أن تكون مثل من قد شانته بكثرة عيوبها، أي بني! أنك أن تزهد فيما قد زهدتك فيه من أمر الدنيا وتعرض نفسك عنها فهي أهل ذاك، فإن كنت غير قابل نصحي إياك منها فاعلم يقيناً إنك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك، فإنك في سبيل

(١) حديث أنس رواه مسلم (٣٤٨٨) وأحمد (١٢٣٤٦).

من قد كان قبلك، فأجمل في الطلب، واعرف سبيل المكتسب، فإنه رب طلب خير إلى جرب، وليس كل طالب يجيب وكل غائب يئوب، وأكرم نفسك عن كل دنيئة، والمغبون من حرم نصيبه من الله، فخذ من الدنيا ما أتاك، وتولى عما تولى عنك، واستعن بالله على أمرك كله والسلام)(١).

فالحاصل أنه من صدق بهذه الأحاديث لا يسعى إلا بالصلاح والإصلاح بين الناس ما استطاعه لله، ومن ارتاب فيها فلا يكون سعيه إلا بالفساد والإفساد والعلو به في أرض الله فيعد في من قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة:٢٧].

باب في ذكر قطيعة الأرحام وأنه من خلق اللئام

(ش) أي خير الدنيا والآخرة على قدر إفسادهم الذي خالفوا به شرع الله، فبسبب ذلك يقطعون أرحامهم، ويسفكون دماءهم حتى صاروا فرقاً مختلفين في دين الله، فقد ورد في قطع الأرحام أحاديث كثيرة تفهم بأن قاطع الرحم لا يدخل جنة الله. روي في الصحيح عن جبير مرفوعاً على النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»(٢).

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قرأ رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد:٢٢-٢٣]»(٣).

---

(١) أبو الحسن بن عبد الله العسكري صاحب الزواجر والمواعظ.

(٢) حديث جبير رواه البخاري في كتاب الأدب (٥٩٨٤) ومسلم في كتاب البر (٢٥٥٦).

(٣) حديث أبي هريرة رواه البخاري في كتاب التفسير (٤٨٣٠) والأدب (٥٩٨٧) ومسلم في كتاب البر (٢٥٥٤).

باب في ذكر أذية الجار

فمن تخلق بقطيعة الأرحام ارتكب أموراً كثيرة توجب عليه اللعنات، وسلب الإيمان بالله، من ذلك ارتكاب أذية الجار لقوله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه، أي شروره) رواه البخاري ومسلم.[1]

فمن لا يبالي بسلب الإيمان سلب منه إذا هو تمادى في الأذية، ولم يخف فيها مقام الله فيه من الذين ما امتثلوا لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ ﴾ [النساء:٣٦] فلا يرى إلا مسيئاً في كل من ذكر، لأن الصغير من الذنب يجر إلى الكبير، والكبير إلى أكبر منه حتى لا يبالي أن لو ارتكب الكفر بالله، روى ابن ماجه أنه ﷺ قال: «إن الله إذا أراد أن يهلك عبداً نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً، فإذا لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائناً مخوناً نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيماً ملعناً نزعت منه ربقه الإسلام»[2].

فإذا لم يبال أحد بما ذكر في هذا الحديث لا يكون إلا مؤذياً لجيرانه مطلقاً لسانه فيما لا يعنيه قل أن يفعل خيراً لله، روى الحاكم في صحيحه أنه ﷺ قال: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع»، وفي رواية: «ما آمن من بات شبعان وجاره طاوياً»[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١٦) من حديث أبي شريح. ورواه مسلم عن أبي هريرة (٤٦) ولفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

(٢) رواه ابن ماجة عن ابن عمر (٤٠٥٤) وهو موضوع. انظر: ضعيف الجامع (١٥٤٣).

(٣) حديث ابن عباس رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٧) وقال: حديث صحيح. ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي (٨/ ١٦٧) (ورجاله ثقات). انظر: السلسلة الصحيحة رقم (١٤٩).

وروى في صحيحه أنه ﷺ قال: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرئ جائع فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى»(١).

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٢).

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»(٣).

باب في ذكر الاستخفاف بأهل الفضل الموقرين أمر الله بالعدل

فالحاصل أنه من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، يشهد ذلك يوم يلقى الله، فأحسن الناس في الصلاح خيراً من كان قلبه رحيماً وأشرهم إساءة من كان قلبه قاسياً لا يعرف حقاً عليه لإخوانه المؤمنين بالله، روى الترمذي أنه ﷺ قال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»(٤).

---

(١) حديث ابن عمر رواه الحاكم. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠٠): (رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه أبو بشر الأملوكي ضعفه ابن معين).

(٢) حديث أبي شريح رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١٨، ٦١٣٥، ٦٤٧٦) ومسلم في كتاب الإيمان (٤٨).

(٣) حديث ابن عمر رواه الترمذي في كتاب البر (١٩٤٤) والدارمي في السير (٢٤٤٢) وأحمد (٢/ ١٦٨). انظر: السلسلة الصحيحة رقم (١٠٣).

(٤) حديث ابن عمرو رواه الترمذي في كتاب البر (١٩٢٠) وأبو داود في كتاب الأدب (٤٩٤٣) وأحمد (٢/ ٢٠٧).

وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، وحافظ القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[١].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم الصغير، ويعرف لعالمنا حقه»[٢].

باب في ذكر حق الزوج وعقاب غضبه

فمن تعلم العلم عرف حق الكبير وحق الصغير به، وعرف آداب العلم، والأدب لمن يعلمه في الله، فإذا عمل به يصير من خير الناس حتى يشتهر بالخير فيهم ويكرموه به في الله، فعلامة خير لله أن يكون من أخير الناس لأهله حيث قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» رواه الترمذي[٣].

فمتى صار خيراً كان قواماً على نسائه بالعلم والأدب حتى يحفظن بهما عن معاصي الله قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤] أي: التي اكتسبوها بطاعة الله فأكلهن الحلال الطيب يجدن من الصالحات اللاتي قال الله فيهن: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤] ومن ليس كذلك كن نساؤه بالضد من ذلك على قدر اكتساب الخبيث من مال الله، قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦].

فهذا الشأن أغلبي لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء:٨٤]، فواجب على الرجل أن يقوم بما لديه من الحق لأهله في

---

(١) حديث أبي موسى رواه أبو داود في الأدب. انظر: صحيح الجامع (٢١٩٩).

(٢) حديث عبادة بن الصامت رواه أحمد (٥/ ٣٢٣).

(٣) حديث ابن عباس رواه الترمذي (٣٨٩٥). انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٥).

الله، وواجب على المرأة أن تؤدي حق أهلها في الله، ولو أن الرجال قاموا على النساء بالتعليم والأدب لصلحن لهم بهما في الله، لكنهم تساهلوا عن ذلك حتى أطاعوهن في الأمور التي تغضب الله، فإن النبي ﷺ كرر ثلاث مرات بقوله: «هلك الرجال حين أطاعوا النساء» رواه أحمد(١).

فكل ما حصل من هلاك للرجال فأصل سببه النساء كما قال ﷺ: «اتقوا الدنيا والنساء، فإن أول فتنة في بني إسرائيل كانت من قبل النساء»(٢).

فلما ما أصغوا لقول نبيهم تغلبن النساء عليهم حتى أطاعوهن فيما يغضب الله، وحتى ضيع النساء حق الرجال، وصرن هن القوامات عليهم بقهر الله، فجعلت المرأة زوجها طوع يدها، ولم تمتثل له في حق عليها لله، فإن أعظم حق عليها حق زوجها لقوله ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» رواه الترمذي(٣).

وروي في الصحيح أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها» وفي رواية: «لعنتها الملائكة حتى تصبح»(٤).

---

(١) لم أجده في المسند. وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة: ثنا أحمد بن عبد الملك بن واقد، ثنا بكار بن عبد العزيز بن أبي بكرة، سمعت أبي يحدث عن أبي بكرة قال: «كنت عند رسول الله ﷺ فجاء بشير يبشره بظفر جند له على عدوهم ورأسه في حجر عائشة، فقام فخر ساجدًا، ثم أنشأ يسائل البشير، فأخبره فيما يخبره أنه وليهم امرأة، فقال النبي ﷺ: هلك الرجال حين أطاعوا النساء- ثلاثا». انظر إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥/ ٢٦).

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي سعيد مرفوعاً. انظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦١٣).

(٣) رواه الترمذي عن عائشة مرفوعاً.

(٤) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

باب في ذكر أذية الصالحين وأنه يوجب غضب رب العالمين

فواجب على كل رجل وامرأة أن يسعى في إصلاح نفسه ولا يؤذي أحداً في الله فإن الذي يؤذي إخوانه المسلمين لا يكون من الأخيار عند الله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب:٥٨] لا سيما الضعفاء منهم الموسومين بالصلاح القائمين بالقسط شهداء لله، فإن الله يغضب على من أنكر عليهم بغير حق كما يغضب للرسل، وروى مسلم عن أبي هريرة: (أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى النبي ﷺ فقال: يا أبا بكر! لقد قلت ما أغضبتهم فإن أغضبتهم فإنك فقد أغضبت ربك، فقال: يا أخوتاه لعلي أغضبتكم، فقالوا: لا، يغفر الله لك يا أخانا[١]).

هذا التخويف لمن كان منصفاً في كلامه، فكيف من لا ينصف في كلامه! ويستحقر فقراء المسلمين، ولا يبالي في أهانتهم وأذيتهم بوعيد الله، فإنا أمرنا أن نتواضع لهم ونصبر أنفسنا معهم كما أمر الله نبيه بقوله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف:٢٨]، فمن فعل ذلك عد من الأخيار، ومن أهان الفقراء وآذاهم عد من الأشرار، وأشرهم من أهان السلطان العادل لله. روى الترمذي أنه ﷺ قال: «من أهان السلطان أهانه الله»[٢].

---

(١) رواه مسلم عن عائذ بن عمرو في فضائل الصحابة (٢٥٠٤).

(٢) حديث أبي بكرة مرفوعاً رواه الترمذي في كتاب الفتن (٢٢٤) وأحمد (٥/ ٤٢)، انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٩٦).

نفهم من معنى الحديث ولو كان جائراً لقوله تعالى في فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه:٤٤] أي: ينصحانه بلين حتى يقبل نصحهما في أداء الأمانة كما أمر إلى أهلها وهم المكلفون بأحكام الله.

باب في ذكر أداء الأمانة وأن لم يؤدها استولت عليه الخيانة وقذف به في النار الحامية

فالأمانة معنوية وحسية: فالمعنوية هي تكاليف شرع الله وهي في قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب:٧٢].

(ش) أي: خفن من ثقلها، وعتابها، وحسابها يوم القيامة، والحسية الودائع وهي في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] أي: من استودع أحداً أمتاعاً وجب عليه أن يرده إليه متى طلبه وإلا كان سبباً في نار الله. روى البيهقي عن ابن مسعود قال: (القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الأمانة والدين، يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال له: أد أمانتك. فيقول: أي رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية. فينطلقون به إليها فتمثل له أمانته كهيأتها يوم دفعت إليه فيراها ويعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبه فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين. ثم قال: الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة - وعدد أشياء - وأشد ذلك الودائع قال: فأتيت البراء فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟ قال: كذا وكذا. قال: صدق، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] قال زيد بن أسلم: هي الصوم والغسل من الجنابة وما خفي من الشرائع)[١].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٦٦) وعبد الرزاق في مصنفه، وابن أبي شيبة، انظر: الدر المنثور (٢/ ١٧٥) للسيوطي.

أي: كل ما تحتم وجوبه هو أمانة لله، فيجب على كل أحد فيما تحتم أداؤه أن يؤديه لربه ولخلقه، وألا يفعل صورة صورته ناراً يعذب بها على قدر ما تحمله أن قليل فقليل وأن كثير فكثير قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فصلت:٤٠] فقد أرشدنا إلى ما فيه أمننا بقوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [النساء:٥٨]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ ﴾ [البقرة:٢٣٢] أي: من تحمل الأوزار التي لا تؤمن الفزع إلا كبر وساق صاحبها إلى نار الله.

باب في ذكر علامة الساعة عند توسد الولاية إلى من يضيع الأمانة

فمن لا يحكم بالعدل في نفسه وأهله فقد ضيع أمانة الله، فلا بد ما يساق بها ضيعه منها إلى نار يعذب بها كما يشاء الله، وقد ضيعت الأمانة من زمان مديد، وقست القلوب بتضييعها، وحل بنا البلاء من الله، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً سئل النبي ﷺ: متى الساعة قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قالوا: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[١].

باب في ذكر النهي عن طلب الإمارة

وقد وسد الأمر إلى الجهلة بالعلم وحكموا على الناس برأيهم من زمان تعددت قرونه، وتزايد شأنه، الذي يشعر بأن الساعة آن بغتتها التي من أمنها سلب من الإيمان بالله، ولا يحكم بالرأي غالباً إذا وسد الأمر إليه إلا الذي سئل الإمارة لكونه وكل إليها، وأمن بها مكر الله،

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (٥٩) والرقاق (٦٤٩٦).

روى أحمد أنه ﷺ قال: «إن أخونكم عندنا من طلبه يعني العمل»[١].

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «إنا لن نستعمل على عملنا من أراده»، وروى البخاري أنه ﷺ قال: «إنا لا نستعين في عملنا بمن سألناه»، وروى أنه ﷺ قال: «إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه»[٢].

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير منها وكفر عن يمينك»[٣].

وروى مسلم عن أبي ذر قلت: «يا رسول الله استعملني، فقال: يا أبا ذر! إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[٤].

فمن أحاط علماً بهذه الأحاديث لا يختار لنفسه الإمارة خوفاً من أن يكون بها جائراً مساقاً بجوره إلى نار الله، فمتى كان على نحو ما ذكر ووليها كرها أعين عليها بالعدل فيها لله، فإذا لم يكن مبالياً بما فيها من آفة وكل إليها، وجار بها جوراً يجعله وقود نار الله. روى

---

(١) رواه أحمد وأبو داود عن أبي موسى قال: (انطلقت مع رجلين إلى النبي ﷺ فتشهد أحدهما ثم قال: جئنا لتستعين بنا على عملك وقال الآخر مثل قول صاحبه فقال: إن أخونكم عندنا من طلبه. فاعتذر أبو موسى إلى النبي ﷺ وقال: لم أعلم لما جاءا له فلم يستعن بهما على شيء حتى مات) قال الألباني في ضعيف أبي داود (٦/ ٤٣٠): منكر.

(٢) حديث أبي موسى قال: (أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين فقلت: ما علمت أنهما يطلبان العمل فقال: لن أو لا نستعمل على عملنا). رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٣٤٠٣)، وفي رواية: (إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه) رواه البخاري (٦٦١٦) ومسلم (٣٤٠٢).

(٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة: (لا تسأل الإمارة). رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور (٦٦٢٢) ومسلم في كتاب الإيمان (١٦٥٢).

(٤) حديث أبي ذر رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥).

البخاري والنسائي أنه ﷺ قال: «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة»[1].

أي: أن صاحبها ينعم برياستها وبما يرضع من توسع معاشها حتى إذا فطم من ذلك بعزل أو موت أذيق مرارة فطامها بهول ما يلقاه بعدها على قدر ما كسب من نعمائها، فأما بفعل إحسان تقدم له في دنياه وتمادى في نار الله، ولا يخلص من شر ذلك إلا الذي لم يسأل الإمارة، ووليها كرهاً عليه امتثالاً لأمر الله ثم عدل فيها متأسياً بأسوة الخلفاء الراشدين المهديين بهدي الله.

(ش) فعلم من نص الأحاديث في الإمارة أن الذي يطلبها إذا جعل أميراً يخون في أمانة الله فلا يؤمر بالعدل لقوله ﷺ: «إن أخونكم عندنا من طلبه»، ولقوله ﷺ: «الإمارة باب عنت إلا من رحمه الله»[2].

أي: فتح باب العنت على من تولى عليهم فيقهرهم بحكم الهوى إلا الذي يسد على نفسه باب العنت ولا يعطيها هواها فيمن جهل عليه معرضاً عنه امتثالاً لأمر الله وهو في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٩] فمن وصف بذلك فهو الذي رحمه الله، وهذا لا يكون إلا فيمن قال فيه ﷺ: «تجدون خير الناس في هذا الشأن من لا يريده فلا يكون لرعيته في أمرها إلا مبذلاً جهده قدر طاقته»[3].

---

(١) رواه البخاري (٦٦ ١٥) والنسائي (٤١٤٤٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٣٢٥٤٧) عن خيثمة مرسلاً، وعند الباوردي عن حميد (إن صاحب السلطان على باب عنت إلا من عصم الله). وقد صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٣٩) ثم ضعفه في ضعيف الجامع (١٨٧٠).

(٣) لم أجده في متون الحديث ولا أجزائه.

ليقينه في قوله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته» رواه أحمد والبخاري ومسلم[(١)].

(ش) فمن عنده يقين بهذا الحديث لا يكون إلا خادماً لرعيته ناصحاً لهم، خافضاً لهم جناح الذل في الله، فعلى قدر ما يتنزل لهم بذلك يكون مرفوعاً عليهم في الدنيا والآخرة وميسراً حسابه يوم الله، وعلى قدر ما يستنكف عن فعل المعروف فيهم يكون مخفوض القدر فيهم موطؤا تحت أقدامهم حينما يحشر معهم، مشدداً حسابه على قدر ما جار عليهم بما يغضب الله. وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «لا يكون رجل على قوم إلا جاء يقدمهم يوم القيامة بين يديه راية يحملها وهم يتبعونه فيسأل عنهم ويسألون عنه» وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «من ولى شيئاً من أمة من أمتي فلم ينصح لهم ويجتهد لهم كنصحه وجهده لنفسه إلا كبه الله على وجه يوم القيامة في النار»[(٢)].

فعلى قدر ما جار عليهم واستنكف عن النصح لهم يكون عذابه في نار الله ثم يخرج منها بعدله إن كان له عدل أو ذرة من إيمان بالله، فمن عنده خوف من ذلك اجتهد في العدل قدر طاقته في الله، ومن ليس مبالياً بذلك خاوي في جوره الشياطين المتسلطين على رعيته بجوره الذي يحرقه ويحرق من أعانه في جوره على قدر ما أسخطوا بذلك الله.

وروى أبو نعيم في الحلية أنه ﷺ قال: «ستفتح مشارق الأرض ومغاربها على أمتي، ألا

---

(١) رواه البخاري في الأحكام (٧١٣٨) ومسلم (١٨٢٩).

(٢) أولهما عن المقدام مرفوعاً رواه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٠٨): (وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف).

وثانيهما عن معقل بن يسار رواه الطبراني في الأوسط بلفظ: (من ولي أمة من أمتي قلَّت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله على وجهه في النار) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٦٠): وفيه عبد العزيز بن الحصين وهو ضعيف، وفي رواية في الصغير: «فلم ينصح لهم ولا يجتهد لهم كنصيحته وجهده لنفسه».

وعمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»[١].

وروى البخاري ومسلم والنسائي أنه ﷺ قال: «إنما الإمام جنة يقاتل به من ورائه، ويتقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له أجراً وإن قال بغيره فإن عليه وزراً»[٢].

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل الجنة»[٣].

وروى أحمد والطبراني أنه ﷺ قال: «إذا استشاط السلطان تسلط الشيطان»[٤].

وروى الحاكم أنه ﷺ قال: «من ولي أمر المسلمين شيئاً فحسنت سريريه رزق الهيبة في قلوبهم، وإذا بسط يده إليهم بالمعروف رزق المحبة منهم، وإذا وفر عليهم أموالهم وفر الله عليه ماله، وإذا أنصف الضعيف من القوي قوى الله سلطانه، وإذا أعدل فيهم مد في عمره»[٥].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٩٩) عن الحسن مرسلاً وهو ضعيف. انظر: السلسلة الضعيفة والموضوعة (٥/ ١٧٥) وضعيف الجامع (٣٢٥٢).

(٢) حديث أبي هريرة رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٣٤٢٨).

(٣) حديث معقل الذي حدث به في مرض موته رواه مسلم (٢٠٥).

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير عن عروة بن محمد بن عطية يعني عطية بن سعد قال: حدثني أبي عن جدي مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٤٤): (وفي إسناده من لم أعرفه). وانظر: السلسلة الضعيفة (٥/ ٣٤٢) وضعيف الجامع (٣٥٦).

(٥) هذا الحديث رواه الحكيم والديلمي وابن النجار عن ابن عباس، ولم يروه الحاكم بهذا اللفظ، وإنما روى عن أبي مريم صاحب رسول الله ﷺ مرفوعاً: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم احتجب الله ﷻ يوم القيامة دون خلته و فاقته و حاجته وفقره» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وإسناده شامي صحيح، وله شاهد بإسناد البصريين صحيح عن عمرو بن مرة الجهني عن رسول الله ﷺ، ووافقه الذهبي في التلخيص (٤/ ١٠٥).

وروى أحمد والترمذي أنه ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم عنه إمام جائر»(١).

باب في ذكر غش الرعية

فمن لا يقين له فيما ذكر لا يكون إلا غاشاً لرعيته حاكماً فيهم بالهوى متعنتاً عليهم بأدنى تقصير منهم في تعظيمه غير آخذ فيهم طريق العفو الذي به أمره، وروى البخاري في باب ذكر غش الرعية أنه ﷺ قال: «ما من عبد يسترعيه الله رعية ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة» وفي رواية لهما: «ولم يحطها بنصيحة لم يجد رائحة الجنة»(٢).

فعلامة من يحيطها بالنصيحة أن يكون خافضاً لهم جناح الذل لضعيفهم وقويهم، وينصف لضعيفهم من قويهم على مشورة من علمائهم الأخيار الناصحين له في الله. قال تعالى لنبيه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر:٨٨] وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران:١٥٩] فمن تخلق بخلق نبيه في ذلك تقوى سلطانه، ومد في عمره، وأحبته رعيته، وأحبه الله، ومن لا يفعل إلا المفاضضة والغلاظة في غير وجهها ضعف سلطانه، وقصر عمره، وبغضته رعيته، وبغضه الله.

باب في ذكر المشقة على الرعية وأنها لا تكون إلا من الذي يخفض جناحه لهم تذللاً لله

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن رفق بهم فارفق به»(٣).

---

(١) حديث أبي سعيد مرفوعاً ضعيف. انظر: ضعيف الجامع الصغير (١٣٦٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام (٧١٥١) ومسلم في كتاب الإيمان (١٤٢) عن معقل بن يسار مرفوعاً.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٢٨) عن عائشة مرفوعاً.

فعلى قدر ما يرفق وال برعيته يحفه الله بألطافه ولم يدعه في مملكته إلى أن يتوفاه الله، وعلى قدر ما يشق عليهم يسلط الله عليه من يشق عليه بالرعب والإرجاف حتى يشتت شمله ويجعله عبرة لمن بعده على قدر ما جار في حكم الله.

روى الطبراني أنه ﷺ قال: «ألا أخبركم بخيار أعمالكم وشرارهم: خيارهم خيارهم لكم من تحبونهم ويحبونكم، وتدعون الله لهم ويدعون الله لكم، وشرارهم شرارهم لكم من تبغضونهم ويبغضونكم وتدعون الله عليهم ويدعون الله عليكم، قالوا: أفلا نقاتلهم يا رسول الله؟ قال: لا، دعوهم ما صاموا وصلوا»، وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «لا بد للناس من إمارة: برة أو فاجرة، فأما البرة فتعدل في القسم، وتقسم بينكم فيئكم بالسوية، وأما الفاجرة فيبتلي فيها المؤمن، والإمارة الفاجرة خير من الهرج، قيل: يا رسول الله وما الهرج؟ قال: القتل والكذب»[1].

وروى أبو الشيخ أنه ﷺ قال: «لن تهلك الرعية وإن كانت ظالمة مسيئة إذا كانت الولاة هادية مهدية، ولكن تهلك الرعية وإن كانت هادية مهدية إذا كانت الولاة ظالمة مسيئة»[2].

وروى ابن أبي شيبة أنه ﷺ قال: «إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة فيقومون على جسر جهنم، فمن كان مطواعاً لله تناوله الله بيمينه حتى ينجيه، ومن كان عاصياً لله انخرق له الجسر إلى واد من نار يلتهب التهاباً» وروى أيضاً أنه ﷺ قال: «الإمام العادل لا ترد دعوته»[3].

---

(١) أولهما رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن عقبة بن عامر. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٦٧): (وفيه بكر بن يونس وثقه أحمد العجلي وضعفه البخاري وأبو زرعة، وبقية رجاله رجال الصحيح).

وثانيهما رواه الطبراني (١٠٢١٠) عن ابن مسعود مرفوعاً. قال الهيثمي (٥/ ٢٢٢): (فيه وهب الله بن رزق، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات).

(٢) ضعيف. ورواه أبو نعيم في «فضيلة العادلين» عن ابن عمر مرفوعاً. انظر السلسلة الضعيفة والموضوعة (٢/ ٨).

(٣) أولهما رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ١٠١) حدثنا عبد الله بن نمير قال: حدثنا فضيل بن غزوان عن محمد الراسبي عن بشر بن عاصم قال: كتب عمر بن الخطاب عهد البشر بن عاصم فقال: لا حاجة لي

وروى أبو نعيم أنه ﷺ قال: (يقال للإمام العادل في قبره: أبشر فإنك رفيق محمد)[١].

وروى أبو سعيد أنه ﷺ قال: «المقسطون في الدنيا على منابر من لؤلؤة بين يدي الرحمن بما أقسطوا»[٢].

وروى ابن النجار أنه ﷺ قال: «ما من أحد أفضل من إمام إن قال صدق، وإن حكم عدل، وإن استرحم رحم»[٣].

وروى الحكيم أنه ﷺ قال: «السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه

فيه! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الولاة يجاء بهم يوم القيامة فيقفون على جسر جهنم، فمن كان مطواعاً لله تناوله الله بيمينه حتى ينجيه، ومن كان عاصياً لله انحرف به الجسر إلى واد من نار يلتهب التهاباً)، قال: فأرسل عمر إلى سلمان وأبي ذر، فقال لأبي ذر: أنت سمعت هذا الحديث من رسول الله؟ قال: نعم والله، وبعد الوادي واد آخر من نار، قال: وسأل سلمان فلم يخبر بشيء، فقال عمر: من يأخذها بما فيها؟ فقال أبو ذر: من سلب الله أنفه وعينيه وأصرع خده إلى الأرض.

ورواه ابن مندة عن بشر وفيه: (انخرق له). انظر: ضعيف الجامع(١٨١٠).

والثاني رواه في المصنف (٥/ ٢٢٤) من طريق عن سعد أبي مجاهد الطائي عن أبي مدلة عن أبي هريرة مرفوعاً، وروى الترمذي وابن ماجة بهذا السند: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم» وأبو مدلة قال ابن المديني: (لا يعرف اسمه، مجهول، لم يرو عنه غير أبي مجاهد). قال الألباني: (فمثله لا يحسن حديثه). انظر: السلسلة الضعيفة (٣/ ٥٣٤).

(١) رواه أبو نعيم عن معاذ، والديلمي (٩٠٠٤).

(٢) رواه أبو سعيد النقاش في القضاة عن عبد الله بن عمرو ورواه أحمد (٦٤٨٥) وعبد الرزاق والنَّسائي في «الكبرى» (٥٨٨٧).

(٣) رواه ابن النجار عن أنس والرامهرمزي في المحدث الفاصل (١/ ٣٤٥) انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ٢١١١٤).

الوزر وعلى الرعية الصبر، وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشي، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة، وإذا خفرت الذمة أديل الكفار»[١].

أي: إذا نقض عهد الله في الكفار تسلطوا بالدولة على من نقض عليهم عهد الله، فكيف ينقض عهد الله في المسلمين ولم ينكر بعضهم على بعض فيه لا باليد ولا باللسان حتى أذيق بعضهم بأس بعض من الله، فلا قوة لسلطان المسلمين على الكفار إلا بتمشية أحكام الإسلام، والوفاء بعهد الله، فإذ لا يفعل لم يكن له أساس من الإسلام وكانت حراسته له خائنة فيه مبغوضة لدى الله، روى الديلمي أنه ﷺ قال: «الإسلام والسلطان أخوان توأمان، لا يصلح واحد منهما إلا بصاحبه، في الإسلام أس، والسلطان حارس، وما لأس له يهدم، وما لا حارس له يضيع»[٢].

باب في ذكر الاحتجاب عن ذي الحاجة من الرعية

وروى أحمد والنسائي أنه ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله»[٣].

روى أبو داود والترمذي عن أبي مريم الأزدي أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاه الله شيئاً من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة. فجعل معاوية رجلاً على حوائج الناس»[٤].

---

(١) رواه البزار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٥٠): (وفيه سعيد بن سنان أبو مهدي وهو متروك)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/ ١٨١): (اتهمه البخاري بقوله: «منكر الحديث». و قال الدارقطني: «يضع الحديث»).

(٢) رواه الديلمي عن ابن عباس (٣٩٦). انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٧٦).

(٣) حديث أبي سعيد مرفوعاً رواه أحمد والنسائي. انظر: ضعيف الجامع (٥٥٧٩).

(٤) حديث أبي مريم الأزدي رواه أبو داود في كتاب الإمارة والترمذي. انظر: السلسلة الصحيحة (٦٢٩).

وروى النسائي أنه ﷺ قال: «ما من أمير أو وال إلا له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً فمن وقى شرها فقد وقى وهو من التي تغلب عليه»(١).

روى ابن منصور أنه ﷺ قال: «ما من أحد من الناس أعظم أجراً من وزير صالح مع الإمام يأمره بذات الله تعالى فيطيعه»(٢).

وروى البخاري في التاريخ أنه ﷺ قال: «إن أشد الناس ندامة يوم القيامة رجل باع آخرته بدنيا غيره»، وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال: «إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة عبداً ذهب آخرته بدنيا غيره»(٣).

باب في ذكر التولية محاباة وأنها توجب لعنة الله

روى الحاكم وأحمد وصححه عن زيد بن أبي سفيان أن أبا بكر قال ليزيد: إن لك قرابة عسى أن تورثهم بالإمارة، وذلك أخوف ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً فأمر أحداً محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»(٤).

---

(١) حديث أبي هريرة رواه النسائي. انظر: السلسلة الصحيحة (٢٢٧٠).

(٢) رواه سعيد بن منصور عن عائشة مرفوعاً. انظر: ضعيف الجامع (٥١٣٩).

(٣) الأول رواه سعيد بن منصور عن عائشة مرفوعاً وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (٥١٣٩).
والثاني رواه البخاري في التاريخ الكبير عن أبي أمامة وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (١٣٨٨).
والثالث رواه ابن ماجه عن أبي أمامة مرفوعاً. انظر: الضعيفة (١٩١٥).

(٤) رواه أحمد (١/ ٦). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٢٣٢): (وفيه رجل لم يسم). ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٣) وقال: صحيح الإسناد وتعقبه الذهبي بقوله: بكر بن خنيس، قال عنه الدارقطني: متروك.

وروى الحاكم وصححه أنه ﷺ قال: «من استعمل أحداً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين». روى الحاكم أنه ﷺ قال: «من ولي على عشرة فحكم بينهم بما أحبوا أو كرهوا جيء به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، فإن حكم بما أنزل الله ولم يرتش في حكمه ولم يحف فك الله عنه، وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى في حكمه وحابى فيه شدت يساره إلى يمينه ثم رمي به في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام».

وروي أيضاً أنه ﷺ قال: «لا يقبل الله صلاة إمام يحكم بغير ما أنزل الله، ولا يقبل صلاة عبد بغير طهور، ولا صدقة من غلول»[١].

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «من مشى إلى سلطان جائر طوعاً من ذات نفسه إليه تملقاً بلقائه، والتسليم عليه خاض في نار جهنم بقدر خطاه إلى أن يرجع من عنده إلى منزله، فإن مال إلى هواه أو شد على عضده لم يحلل به من الله لعنة إلا كان عليه مثلها، ولم يعذب في النار بنوع من العذاب إلا عذب مثله»[٢].

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «يؤتى بصاحب القلم يوم القيامة في تابوت من نار يقفل عليه بأقفال من نار فينظر قلمه فيما أجراه، فإن كان أجراه في طاعة الله ورضوانه قفز عن التابوت، وإن كان أجراه في معصية الله هوى التابوت به سبعين خريفاً هو والقلم ولايق

---

(١) الأول رواه الحاكم (٤/ ٩٢) وقال: صحيح الإسناد، وفي إسناده حسين بن قيس الرحبي وهو متروك.
الثاني رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٦) وقال: سعدان بن الوليد البخلي كوفي قليل الحديث، و لم يخرجاه. وسكت عليه الذهبي.
الثالث رواه في المستدرك (٤/ ١٠٠) عن طلحة بن عبيد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أيها الناس لا يقبل الله صلاة إمام حكم بغير ما أنزل الله..» وذكر باقي الحديث وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي في التلخيص: سنده مظلم.
(٢) رواه الديلمي عن أبي الدرداء. انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ٢٤٦٢٤).

الدواة»[١].

وروى البيهقي أنه ﷺ قال: «ويل للزربية، قيل: يا رسول الله وما الزربية؟ قال: الذي إذا صدق الأمير قال: صدق، وإذا كذب الأمير قالوا: صدق الأمير»[٢].

فعلمنا بذلك أن خطر الولاية عظيم الهول فلا يقدم عليها، ويرتضيها لنفسه إلا ناقص العقل الآمن فيها وعيد الله إلا من أكره عليها، فلا يتولاها إلا كرهاً لكونه تعين عليه توليتها في الله، فهو الذي يمتثل لما إليه داود في قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص:٢٦] وأما الذي لا يمتثل بما ذكر فما هو إلا متبع هواه وضال به عن السبيل الأقوم لله، فمتى ضل به عن السبيل الأقوم نسي الحساب فيما صنعه من ظلمه وجوره، فلا يتذكره إلا يوم يساق به إلى نار الله.

باب في ذكر الظلم والجور وخطر الولاية

روى الحاكم وأحمد أنه ﷺ قال: «ما من أحد يكون على أمور هذه الأمة فلم يعدل بينهم إلا كبه الله في النار»[٣].

---

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٧٨): (وفيه أبو أيوب الجيزي عن إسماعيل بن عياش، والظاهر أن آفة هذا الحديث الجيزي؛ لأن الطبراني قال في الأوسط: تفرد به الجيزي.

(٢) رواه البيهقي عن ابن عمر مرفوعاً في شعب الإيمان (١٩/ ٣٩٣).

(٣) رواه الحاكم عن معقل بن يسار وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وهو في ضعيف الجامع. جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٧٤٤٩).

ليس من والى أمة قلت أو كثرت لا يعدل فيها إلا كبه الله تعالى على وجهه فى النار (أحمد عن معقل بن يسار).

أخرجه أحمد (٥/ ٢٥)، رقم (٢٠٣٠٥). قال الهيثمي (٥/ ٢١٣): (رواه الطبراني في الأوسط وفيه عبد العزيز بن الحصين وهو ضعيف). وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٢٣، رقم ٥١٩)، وفي الأوسط (٦/ ٣٦٥، رقم ٦٦٢٩).

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «ويل للأمراء، ويل للعرفاء، ويل للأمناء ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم كانت معلقة بالثريا يتذبذبون بين السماء ولأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء»[(١)].

وروى الخطيب أنه ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان أمراء ظلمه، ووزراء فسقه، وقضاة خونة، و فقهاء كذبه، فمن أدركهم لا يكون لهم عريفاً ولا جابياً ولا خازناً ولا شرطياً»[(٢)].

وروى أحمد والطبراني أنه ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[(٣)].

وروى البيهقي أنه ﷺ قال: «ما من عبد يظلم رجلاً مظلمة في الدنيا لا يقصه من نفسه إلا قصه الله منه يوم القيامة»[(٤)].

وروى أبو سعيد أنه ﷺ قال: «بين العبد والجنة سبع عقبات، أهونها الموت وأصعبها الوقوف بين يدي الله إذا تعلق المظلومون بالظالمين»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٣٣).

(٢) رواه الخطيب في التاريخ (١٠/ ٢٨٤)، والطبراني في الصغير والأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٣٧٣): (وفيه داود بن سليمان الخراساني. قال الطبراني: لا بأس به، وقال الأزدي: ضعيف جداً، ومعاوية بن الهيثم لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات).

وقال الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة (٧ / ٣١٥): منكر.

(٣) رواه الإمام أحمد والطبراني وابن ماجه عن ابن عمر، وأخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد ومسلم عن جابر بزيادة: «واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

(٤) رواه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٢٠/ ١) عن علي بن عاصم عن أبي هارون العبدي قال: سمعت أبا سعيد الخدري مرفوعاً، قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (٥/ ٣٠٧): (وهذا إسناد ضعيف جداً، أبو هارون العبدي متروك، و علي بن عاصم ضعيف).

(٥) رواه أبو سعيد النقاش في معجمه وابن النجار عن أنس مرفوعاً. قال الألباني في ضعيف الجامع (٢٣٦٠) بأنه موضوع.

روى البخاري أنه ﷺ قال: «اتقوا دعوة المظلوم فليس بينهما وبين الله حجاب»(١).

باب في ذكر ولاية من يضعف عن القيام بحقها

وروى مسلم أنه ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم»(٢).

وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار»(٣).

وروى أيضاً أنه ﷺ قال: «من أفتى فتيا بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه»(٤).

(ش) روى ابن عساكر أنه ﷺ قال: «من أفتى بغير علم لعنته الملائكة السماء والأرض»(٥).

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «إني لا أتخوف على أمتي مؤمناً، ولا مشركاً، فأما المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون»(٦).

---

(١) ورواه البخاري في كتاب الزكاة (١٤٩٦) والمظالم (٢٤٤٨) والمغازي (٤٣٤٧) ورواه مسلم في كتاب الإيمان (١٩) عن معاذ.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة (١٨٢٥).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأقضية (٣٥٧٣) والترمذي في كتاب الأحكام (١٣٢٢)وابن ماجه في كتاب الأحكام (٢٣١٥) عن بريدة مرفوعاً.

(٤) رواه أبو داود في كتاب العلم (٣٦٥٧) وأحمد (٢/ ٣٢١) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٥) رواه ابن عساكر عن علي. وهو ضعيف. انظر: ضعيف الجامع (٥٤٥٩).

(٦) رواه الطبراني في الأوسط والصغير عن علي بن أبي طالب مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١١٣): (وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف جداً).

وروى الحاكم أنه ﷺ قال: «ويل لأمتي من علماء السوء يتخذون هذا العلم تجارة، يبيعونها من أمراء زمانهم ربحاً لأنفسهم، لا أربح الله تجارتهم»(١).

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «يوشك أن يظهر العلم، ويخزن العمل، ويتواصل الناس بألسنتهم، ويتباعدون بقلوبهم، فإذا فعلوا ذلك طبع الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم»(٢).

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه أنه ﷺ قال: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(٣).

وروى الحاكم أنه ﷺ قال: «علم الله آدم ألف حرفة من الحرف وقال له: قل لولدك وذريتك: إن لم تصبروا فاطلبوا الدنيا بهذه الحرف ولا تطلبوها بالدين، فإن الدين لي وحدي خالصاً، ويل لمن طلب الدنيا بالدين ويل له»(٤).

وروى الحاكم في تاريخه أنه ﷺ قال: «سيكون في آخر أمتي أقوام يزخرفون مساجدهم، ويخربون قلوبهم، يتقي أحدهم على ثوبه ما لا يتقي على دينه، لا يبالي أحدهم إذا سلمت له دنياه ما كان من أمر دينه»(٥).

---

(١) رواه الحاكم في تاريخه عن أنس مرفوعاً. قال الألباني في «السلسلة الضعيفة والموضوعة» (١١/ ٣٨٣): (ضعيف).

(٢) رواه الديلمي عن ابن عمر مرفوعاً (٨٩٧٢). انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ٢٦٤٣٧).

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٦١٥٩).

(٤) رواه الحاكم في تاريخه عن عطية بن بسر المازني والديلمي (٤١٠٥). وانظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٤٤٤٤).

(٥) رواه الحاكم في تاريخه عن ابن عباس. انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٣٤٩٠).

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»(١).

وروى الديلمي في مسنده أنه ﷺ قال: «من ازداد علماً و لم يزدد في الدنيا زهداً لم يزدد من الله إلا بعداً»(٢).

(ش) فما ذكر في معنى الأحاديث هو من تبليغ الأمانة التي واجب على من بلغته أن يؤدي حقها لله ولخلقه قدر طاعته في الله، فمن خان فيها حاجته بحججها وبما فيها من إنذار وعيد الله، فإن سيق بها إلى النار حتى ألقي فيها قيل له مع فوجه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ ﴾ [الملك:٨-١٠].

فكم من إنسان يظن انه لا يقال له ذلك، ولا يقوله لما يغره به عدو الله، وهو قد اتخذه صديقاً في اتباع الهوى، وما اتخذه عدواً كما أمره الله، فاكتسب المال الحرام، وارتشى وغل وكذب ونقص عهد الله، فكيف لا يقال له ما ذكر! وكيف لا يقر بأنه كان مكذباً بل يقر بشكه الذي هو بمنزلة التكذيب بآيات الله، فمن يكون كذلك لا يراقب في مؤمن إلا ولا ذمة، فيعد من المعتدين الخائنين في أمانة الله.

باب في ذكر الأمانة في المعاملات من بيع وشراء ومتاع

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٣].

(ش) أي في أداء أمانة الله ولخلقه ما استطاعه في الله، فإذا لم يفعل كان من الذين خالفوا أمر الله في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء:٥٨] وتحمل وبال

(١) رواه الطبراني عن أنس، وهو في ضعيف الجامع (٣١٨٩).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس وهو (ضعيف جداً). انظر: ضعيف الجامع (٥٣٩٣).

ذلك في يوم يشتعل عليه ناراً على ما قدر ما خان في أمانة الله.

(ش) فلا يعرف الإنسان ثقل حملها إذا هو خان فيها إلا يوم يلقى بها الله فيذكر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب:٧٢].

ولا ينفعه ذكرى ذلك وإلقاؤه المعاذير فيه لله قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفجر:٢٣-٢٤] والحال أنه قدم ما يخبله في جهنم التي من عذب بها لا يموت فيها ولا يحيا، ولا ينفعه دعاؤه الله، ولو أنه قدم لحياته لنجى من وبال ذلك، لكنه أبى إلا الخيانة حتى نزع منه الإيمان بالله، وروي في الصحيح عن حذيفة قال: (حدثنا رسول الله ﷺ بحديثين رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر؛ حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة. ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجها على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء، ثم أخذ حصاة فدحرجها على رجله، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدهم يودي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلده.. ما أظرفه.. ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)[١].

(ش) من لا يصغى لما ذكر كله وقد خان في أمانته فلا بد ما تحاجه يوم الله، وروى مسلم في حديث الشفاعة: «وترسل الأمانة والرحم فيقومان بجنبي الصراط يميناً وشمالاً»[٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (٦٤٩٧) والفتن (٧٠٨٦) والاعتصام (٧٢٧٦) ومسلم في كتاب الإيمان (٢٣٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٩٥) من حديث حذيفة في الشفاعة العظمى.

(ش) فمن شهدا له بالأداء جاز الصراط، ومن شهدا له بالخيانة كرفس في جهنم إما من أول قدم أو آخر قدم عندما يطفئ منه نور الإيمان بالله، وروى في الجامع للسيوطي أنه ﷺ قال: «إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم ستراً منه على عباده، وأما عند الصراط فإن الله عزوجل يعطي كل مؤمن نوراً وكل مؤمنة نوراً وكل منافق نوراً، فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات، فقال المنافقون: انظرونا نقتبس من نوركم. وقال المؤمنون: ربنا أتمم لنا نورنا، فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً»(١).

وروى أحمد وابن ماجه وابن حبان أنه ﷺ قال: «يوضع الصراط بين ظهراني جهنم عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مسلم ومخدوش به، ثم ناج ومحتبس به ومنكوس فيها»(٢).

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «لو يعلم المرء ما يأتيه بعد الموت ما أكل أكلة ولا شرب شربة إلا وهو يبكي ويضرب على صدره»(٣).

وروى البخاري ومسلم والترمذي أنه ﷺ قال: «إذا مات أحدهم عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، فإن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»(٤).

---

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ٣٣): (وفيه إسحق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك)، وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٦٢١): (موضوع).

(٢) حديث أبي سعيد مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٨١٨٩).

(٣) رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٦): (وفيه إبراهيم بن هراسة وهو متروك)، وانظر: ضعيف الجامع (٤٨٦١).

(٤) حديث ابن عمر رواه البخاري (١٢٩٠) ومسلم (٥١١٠) و الترمذي (٤/ ٢٣٨).

وروى ابن حبان أنه ﷺ قال: «يبعث كل عبد على القبر على ما مات عليه؛ المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه»[(١)].

باب في ذكر السؤال عن الرعية

فيا من يريد النجاة من النار، والفوز بالجنة أد الأمانة حقها لله، فإنك إن أديت حقها وقيت النار بها، وأدخلت جنة الله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم:٦].

(ش) فلا ينجي منها إلا من أدى الأمانة حقها في نفسه، وفيمن استرعى عليه من خاصة أو عامة كثروا أو قلوا، فلا بد ما يسأل عنهم يوم الله، وروي في الصحيح أنه ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ومسئولة عن رعيتها، والولد راع في مال أبيه ومسئول عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[(٢)].

---

(١) حديث جابر رواه أحمد والطبراني في الأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٤٨): (في الصحيح منه يبعث: «كل عبد على ما مات عليه» فقط وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام وبقية رجاله ثقات.

وقال الألباني في ظلال الجنة (٢/ ١١٥): (هو في المسند من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول.. فذكره، وهذا إسناد جيد في الشواهد والمتابعات).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام (٧١٣٨) ومسلم (١٨٢٩).

باب في ذكر المشقة على الرعية

(ش) فأشد الناس عذاباً في قبره ومحشره من شق على رعيته، وأحسنهم مبعثاً من رفق برعيته لدعاء رسول الله وهو: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به» رواه مسلم[١].

باب في ذكر الرفق بالمملوك و الرفق بالبهائم

(ش) ومن الرعية المملوك فإن رفق به سيده رفق به، و إن شق عليه شق عليه الله، روي في الصحيح عن أبي مسعود ﷺ أنه ضرب عبداً له فقال النبي ﷺ: «اعلمْ أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام، قلت: هو حر لوجه الله تعالى. فقال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار - أو لمستك النار»[٢].

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «أيما عبد ابق فقد برئت منه الذمة»[٣].

(ش) فحقوق العبد على سيده كثيرة، وحقوق السيد على عبده كثيرة، فلا بد من الموازنة عند حساب الله، وكذلك حقوق البهائم على مالكها كثيرة، فلا بد ما يسأل عنها يوم الله فإذا لم يؤدها ولو بارتكاب محرم منها اقتص منه في حساب الله، روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال لصاحب الجمل الذي لم يعلفه: «أما إنه ليحاجك يوم القيامة»[٤].

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته»[٥].

---

(١) رواه مسلم عن عائشة مرفوعاً (١٨٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٥٩) وفي الشرح عن ابن مسعود وهو تصحيف.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان عن جرير بن عبد الله مرفوعاً (٦٩).

(٤) لم أجده في الصحيحين، وإنما رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٩) وأحمد (١/ ١٢٤).

(٥) رواه مسلم في كتاب الزكاة (٩٩٦).

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»[١].

وروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر عليه حمار قد وسم في وجهه فأنكر ذلك. وفي رواية: «لعن الله الذي وسمه» وفي رواية: «نهى عن الضرب في الوجه وعن الوسم في الوجه»[٢].

باب في ذكر ظلم الأجير إن ظالمه يخصم إلى السعير

(ش) فمن فعل من هذا المحرمات في الأوادم أو البهائم بشيء أصابته لعنات ربه على قدر ذلك، وأقيم عليه القصاص فيه يوم الله، فأكثر الناس من كان النبي ﷺ خصمه يوم حساب الله وهو فيما رواه البخاري أنه ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يؤته أجرته»[٣].

(ش) فهذا النوع كثير فى الناس اليوم، وأكلوا حق الضعيف، ولم يبالوا فيه بوعيد الله.

باب في ذكر ما يورث انقطاعاً عن الجنة

والذي يوجب انقطاعاً عن الجنة كثير من ذلك سؤال المرأة طلاقها من زوجها تعنتاً وهو فيما رواه الترمذي أنه ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[٤].

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٣١٨) ومسلم في التوبة (٢٦١٩) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في كتاب اللباس (٢١١٨) عن ابن عباس، وفي الشرح مر على جمل.

(٣) رواه البخاري في كتاب البيوع (٢٢٢٧) والإجارة (٢٢٧٠).

(٤) رواه الترمذي في كتاب الطلاق (١١٨٧) وأبو داود في كتاب الطلاق (٢٢٢٦) وابن ماجه في كتاب الطلاق (٢٠٥٥) وأحمد (٥/ ٢٧٧).

وكذا فيما رواه الحاكم أنه ﷺ قال: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث – وهو المقر على أهله السوء، ولم ينكر عليهم –، ورجلة النساء»[١].

(ش) أي: المتشبهات بالرجال في اللبس والمشبه والركوب على السروج ونحو ذلك مما يعتاده الرجال ولا يشاركنهم فيه، روى أبو داود أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري -أي: الشديد الغلاظه بالبطش والبغي-»[٢].

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة إلا بحسن الخلق».

وروى أبو يعلى أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة جسد غدي بالحرام»[٣].

وروى الترمذي أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة خب – أي مفسد –، ولا بخيل، ولا منان»[٤].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة صاحب مكس»[٥].

وروى الطبراني أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[٦].

وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر»[٧].

---

(١) رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً. وقال: صحيح الإسناد. ورواه النسائي والبزار وهو صحيح. انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٢٢٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٠١) عن حارثة بن وهب مرفوعاً وهو صحيح. انظر المشكاة (٥٠٨٠).

(٣) حديث أبي بكر الصديق رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٣): (ورجال أبي يعلى ثقات وفي بعضهم خلاف).

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٣) عن أبي بكر الصديق مرفوعاً، وهو في ضعيف الجامع الصغير (٦٣٣٩).

(٥) رواه أحمد وأبو داود عن عقبة بن عامر، وهو في ضعيف الجامع الصغير (٦٣٤١).

(٦) لم يروه الطبراني وإنما روى الذي بعده. وهذا رواه البخاري (٥٥٢٥) عن جبير بن مطعم.

(٧) رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٧٦٧٣).

وروى البخاري أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من أتى ذات محرم»[(١)].

وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «لا يدخل الجنة إلا حريص عليها»[(٢)].

أي: إنه يعمل لها عملاً صالحا يترجاها به حتى يغلب على سوء ما عمله مما يوجب نار الله، فمن مات وهو على وزن حبة من عمل صالح فلا بد من دخوله ولو بعد حين جنة الله، فكل ما ذكر من عمل سوء يوجب نار الله، ثم يكون بالعمل الصالح الخروج من النار، ولا يخلد فيها إلا الذي ليس في قلبه مثال ذرة من إيمان بالله.

فمن وجدت ذرة الإيمان في قلبه فلا يستقر على ذنب حتى يتوب إلى الله فيرى مهتماً بالليل والنهار على نية أن يتوب منه، ولو بالتسويف المعزم في الله، لكن التسويف شعار الشيطان، فليكن المؤمن على حذر منه في الله لاسيما إن فعل ذنباً يوجب عليه غضب الله أن لو لقيه به، فيبادر المؤمن إلى من له الحق فيه حتى يعطيه إياه أو يسامحه فيه لله.

باب في ذكر ظلم المرأة في مهرها وكذا الضعيف

روى الطبراني أنه ﷺ قال: «أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر وليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان»[(٣)].

أي: يعاقب على استحلال فرجها بغير مقابل له من مهر سلمه لها، فليحذر المؤمن من ذلك أشد الحذر، ولا يظلم امرأة في صداقها أو ما حقر منه لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ

---

(١) رواه الطبراني. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١١٣): (ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن حسان الكوفي وهو ثقة)، ورواه أيضاً في الأوسط من حديث عبد الله بن عمرو عن شيخه علي بن سعيد قال الدار قطني: ليس بذاك. وقال الذهبي: كان من الحفاظ الرحالين، وعبد العزيز بن عيسى لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه الديلمي (٧٦١٧) عن أنس مرفوعاً. انظر: الجامع الكبير للسيوطي (١/ ١٩٢٩٤).

(٣) رواه الطبراني في الكبير عن قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ١٣١ وعمرو بن دينار هذا متروك.

﴿نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النساء:٤] لكن بشرط أن تسامحه فيه بطيب نفس لا تقهر.

فقد تساهل الناس اليوم في ذلك كثيراً، وتحايلوا على النساء في إسقاط مهورهن بحيل الجور عليهن، والعضل والتعنتات التي تغضب الله، فكيف وقد شدد الله فيه بقوله: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠﴾ [النساء:٢٠] فسمى أخذه بهتاناً، يكون به إثم مبين في وعيد الله، فذلك وصى النبي ﷺ بقوله: «اتقوا الله في الضعيفين المملوك والمرأة»[1].

وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال: «الله الله في النساء فإنهن عوان عندكم»[2].

وروى أحمد أنه ﷺ قال: «إن الله يوصيكم بالنساء خيراً»[3].

فمن الخير أن يعطين حقهن ممن ظلمهن فيه غير متعتع، ويكون به التطهير من الله، فمتى تساهل فيه حكام الجور وأكل الرجال مهورهن ظلماً حل به الغضب من الله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النساء:٢١] أي: عهداً في إمساكهن بمعروف، أوتسريحهن بإحسان، ومن الإحسان أن لا يتحايل عليهن في أكل مهورهن ظلماً، فالذي يفعله يكون ناقصاً عند الله، ويجب على ولاة الأمور أن يأخذوا لهن الحق ممن ظلمهن في مهر وغيره؛ لأنهن من أضعف الضعفاء الذين قال من أجلهم ﷺ: «كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ ضعيفها حقه من قويها، وهو غير متعتع» رواه أبو يعلى، وفي

---

(١) رواه ابن عساكر عن أبن عمر انظر ضعيف الجامع (١١٩)

(٢) رواه ابن ماجة (١٨٥١) بلفظ استوصوا..

(٣) لم أجده عند أحمد بهذا اللفظ وإنما رواه الطبراني عن المقدام واختلف نظر الألباني فيه فقال ضعيف في السلسلة الضعيفة (٣١٣٨) وصحيح في السلسلة الصحيحة (٢٨٧١)

رواية للطبراني أنه ﷺ قال: «لا يقدس الله أمة لا يقضي فيها بالحق، ويأخذ الضعيف حقه من القوي غير متعتع»، وفي رواية لابن ماجه وابن حبان أنه ﷺ قال: «كيف يقدس الله أمة – أي: يطهرها حتى يقبل أعمالها – لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم» رواه أبو يعلى(١).

أي: فلا يكون لهم تطهير حتى ينكروا ظلم الظالم الذي لم يعط حق الضعيف حتى يوصلوه إليه غير متعتع فيكون له بذلك التطهير والنصر من الله، فإن لم يفعلوا ذلك حل عليهم البلاء والغلاء والبأساء والمحق والسحق على قدرها ما ظلموا ضعفائهم من رجال ونساء، وعدوا من شرار خلق الله، فإنا أمرنا جميعاً بالإحسان فيما بيننا بالقول والعمل امتثالاً لأمر الله وهو في قوله: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] أي: قولاً حسناً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق من الله، حتى أمرنا باللطف في تناول السلاح من بعضنا البعض لئلا يكون به جرح أو ترويع فيكون به المقت من الله، فكيف بالإشارة به تخويفاً ولو بالمزح، فإن ذلك يوجب لعنة ملائكة الله.

باب في ذكر الإشارة على المسلم ولو باللعب وترويعه ولو بالمزح

وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإن لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار»(٢).

وروى مسلم أنه ﷺ قال: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يردها وإن كان أخاه من أبيه وأمه»(٣).

---

(١) حديث جابر أبو يعلى (٢٠٠٣)و ابن ماجه (٤٠١٠) وابن حبان (٥٠٥٨) وهو صحيح انظر صحيح الجامع (٤٥٩٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن (٧٠٧٢) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٦١٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٦١٦).

وروى الترمذي أنه ﷺ «نهى أن يتعاطى السيف مسلولاً»[(١)].

وفي المسند: أن النبي ﷺ مر على قوم يتعاطون سيفاً مسلولاً فقال: لعن الله من فعل هذا أوليس قد نهيت عن هذا؟ ثم قال: «إذا سل أحدكم سيفه فنظر إليه ثم أراد أن يناوله أخاه فليغمده ثم يناوله إياه»[(٢)].

(ش) فمن امتثل اللطف المذكور حتى لم يرع بعضنا بعضاً سلاح ولا غيره كنا إخواناً متراحمين لله، فان لم تفعل إلا المخالفة في ترويع المسلم كان به الظلم العظيم المفسد دين الله، روى الطبراني أنه ﷺ قال: «لا تروعوا المسلم فإن روعته ظلم عظيم»[(٣)].

أي: يعلم الفساد به الموجب التفرقة بالبغضاء التي تكون بها عصبية الجاهلية الذين هم أعداء الله.

باب في ذكر العصبية

روى مسلم أنه ﷺ قال: «من قتل تحت راية عمية – أي: على غير بصيرة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة – يدعو إلى عصبية – أي بغير حق – فقتلته جاهليه»[(٤)].

(ش) أي يخشى عليه أن يخلد بها في نار الله، فمثله كمثل بعير سقط في بئر وإنسان يجره

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الفتن (٢١٦٣) وأبو داود في كتاب الجهاد (٢٥٨٨). انظر: صحيح الجامع (٦٨١٩).

(٢) رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٢) والحاكم (٤/ ٢٩٠) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) حديث عامر بن ربيعة: أن رجلاً أخذ نعل رجل فغيبها وهو يمزح، فذكر ذلك للنبي ﷺ.. فذكر الحديث. رواه الطبراني والبزار. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٣): (وفيه عاصم بن عبيد الله وهو ضعيف).

وانظر: ضعيف الجامع (٦٢١١).

(٤) رواه مسلم في كتاب الإمارة عن جندب بن عبد الله (١٨٥٠).

بذنبه فلابد ما يسقط معه فيه، فكذلك هو لما نصر الظالم على ظلمه سقط معه في نار الله، وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردئ في بئر فهو ينزع بذنبه»(١).

فمن لم يخف من المثال المذكور كان هو والأنعام سواء بل هو أضل منها سبيلاً في مثال الله، ولا يتعقل المثال المذكور من تحاب مع الظلمة وأعوانهم، لأنه يعد منهم ويحشر معهم إلى نار الله، فلا يعرف أنه من أهل المثال المذكور إلا في يوم الله. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ ﴾ [يونس:٥٤] فما يزداد فيه بندامتهم إلا شدة عذاب من الله، وهذه الآية جامعة في حق من ظلم في أمور الدين والدنيا، وأن الظلم اسم لكل مظلمة، قال تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء:٢٢٧] فلا يأمن من سوء المنقلب الذين أصروا على ظلمهم إلا الخاسر خير الله، فمن أشر الناس من يصحب من يحدث باطلاً حتى آواه إليه ونصره بغير حق في الله، فقد قال ﷺ: «لعن الله من آوى محدثاً»(٢).

(ش) فلا يبالي في ذلك بلعنة الله أو بكل ما فيه لعنة أو نار أو غضب، فلا يبالي بارتكابه لأمنه فيه من وعيد الله.

باب في ذكر ظلم اليتيم

وأشد ما فيه وعيد الله أكل مال اليتامى ظلماً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء:١٠] وهو من السبع الموبقات أصحابهن في نار الله، وهو فيما رواه البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٥١١٧) موقوفاً على ابن مسعود، ورواه أحمد (١/ ٣٩٣، ٤٤٩) مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في كتاب الأضاحي (١٩٧٨) عن علي مرفوعاً.

إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[1].

باب في ذكر غصب الأرض

(ش) فإذا لم يبال مرتكبهن بوعيد هذه، والبعض منهن لا يبالي أن لو أخذ أرضاً ظلماً كبرت أو صغرت ولو يسمع ما بولغ فيها من وعيد الله. روى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوق به يوم القيامة من سبع أرضين»[2].

باب في ذكر الظلم في الأبدان

وكذلك لا يبالي بذنب ما ذكره ﷺ بقوله: «ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة: من أمَّ قوماً وهم له كارهون، ورجل أتى الصلاة دباراً - والدبار أن يأتيها بعد أن تفوته - ورجل اعتبد محرراً» رواه أبو داود[3].

وكذلك لا يبالي أن لو فعل ما ذكره ﷺ بقوله: «من جرد ظهر مسلم بغير حق؛ لقي الله وهو عليه غضبان» رواه الطبراني[4].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوصايا (٢٧٦٦) والحدود (٦٨٥٧) ومسلم في كتاب الإيمان (٨٩) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب المظالم (٢٤٥٢، ٣١٩٨) ومسلم في كتاب المساقاة (١٦١٠) عن سعيد بن زيد.

(٣) رواه أبو داود في الصلاة (٥١٣) عن ابن عمرو مرفوعاً. انظر: ضعيف الجامع (٢٦٠٣).

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط عن أبي أمامة مرفوعاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ١٠٣): (وإسناده جيد)، وضعفه الألباني. انظر: ضعيف الجامع (٤٥٤٣).

باب في ذكر الظلم في الأموال

وكذلك لا يبالي بما ذكر في الصحيح أنه يضعف الإيمان ويسلبه، ويخلد في نار الله وهو في قوله ﷺ: «ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»[١].

باب في ذكر خذلان المظلوم ونصره

وكذلك لا يبالي بإبعاد الله لمن يقدر على نصره أخاه المسلم فلم ينصره الله وهو في قوله ﷺ: «من أُذِلَّ عنده مسلم فلم ينصره وهو يقدر أن ينصره أذله الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة» رواه أحمد[٢].

(ش) بل لا يرى من ذكر إلا في معظم من الكبائر المذكورة التي تجر بعضها إلى بعض حتى الكفر بالله، فيا ويل المتخلق بها، ولو البعض منها، ويا طوبى من يتجنبها خوفاً من مقام الله. وروى أبو داود أنه ﷺ قال: «ما من امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم (٢٤٧٥) والأشربة (٥٥٧٨) والحدود (٦٧٧٢) عن أبي هريرة مرفوعاً.
ما قرره الشارح يتنافى مع عقيدة أهل السنة في عدم تخليد أهل الكبائر الذي هو قول الخوارج والمعتزلة، والشارح قد نبه أنهم أصحاب الكبائر تحت المشيئة فلعلها زلة قلم.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٨٧) والطبراني (٥٥٥٤) عن سهل بن حنيف مرفوعاً. قال الهيثمي (٧/ ٢٦٧): (وفيه ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضعف وبقية رجاله ثقات).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب (٤٨٨٤) وأحمد (٤/ ٣٠) عن جابر وأبي طلحة مرفوعاً. انظر: صحيح الجامع (٥٦٩٠).

باب في ذكر أخوة الإسلام وحق المسلم على المسلم

(ش) فعلامة الأخيار أن يكون وصفهم النصرة لله لكونهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ابتغاء الثواب من الله، فيكونون إخوة كأنهم أولاد رجل واحد يتحابون فيما بينهم لله فوصفهم الله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] وقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة:٥٤].

(ش) وبقوله: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح:٢٩] فكما كان في المتقدم منهم وصف ما ذكر يكون في المتأخر إذا هم اقتدوا بهداهم في الله قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ﴾ [الجمعة:٣] فمن تخلق بخلقهم لحق بهم وكان من إخوان رسول الله. وروى الديلمي أنه ﷺ قال: «رحم الله إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني»(١).

روى أبو يعلى في صحيحه أنه ﷺ قال: «متى ألقى إخواني؟ قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي، وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني»(٢).

فكل من المؤمنين تكون أفضلية أخوته له على قدر محبته له واتباع لما أرشد إليه في الله، فأفضلهم في ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقوله ﷺ: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً

---

(١) رواه أحمد عن أنس مرفوعاً بلفظ: «وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني» قال الهيثمي (١٠/ ٦٦): (في إسناده أحمد جسر وهو ضعيف).

(٢) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٣٢٩٦) حدثنا الفضل بن الصباح أبو العباس، حدثنا أبو عبيدة الحداد، عن محتسب، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك مرفوعاً.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٥٤): (محتسب أبو عائذ وثقه ابن حبان وضعفه ابن عدي، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح غير الفضل بن الصباح وهو ثقة).

وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٩٠٤)، وفي الشرح زيادة: «إنا إليهم بالأشواق» لم ترد في الحديث.

لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل»[١].

(ش) أي: أفضل لأبي بكر عند الله، فعلامة المخاوين لرسول الله ﷺ أن يكونوا كالبنيان في شد بعضه لبعض، فلا يكون بينهم تنازع ولا بغضاء يتوادون بالنصيحة حباً في الله. وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وروى أيضاً أنه ﷺ قال: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

(ش) فمن كان على هذا الوصف الحميد لا يكون بينهم تحاسد ولا تناجش ولا تباغض ولا تدابر ممتثلين لإرشاد رسول الله، وذلك في قوله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه مسلم[٣].

(ش) فما ذكر هو علامة لأخوة الإسلام المحبوبة عند الله، فقلّ أن توجد في هذا الزمان إلا أن يقوموا مجاهدين أنفسهم في الله، فإن الله قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩] فلا إياس لمؤمن من روح الله، فمتى جاهدوا على أخوة الإسلام نالوها فيصبحوا إخواناً متحابين في الله، ولا يكون ذلك إلا من بعد أن لا يحقروا أحداً منهم، ولا يظلموه ولا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٨٥) عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (٦٠١١) ومسلم في كتاب البر (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير مرفوعاً.

(٣) رواه مسلم (٤٦٥٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

يسلموه لأعداء الله، وروى البخاري ومسلم أنه ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[١].

(ش) فما يسعى لذلك إلا مؤمن قد باشر قلبه الإيمان بالله، ولا يتثاقل عنه - وهو يقدر عليه بغير كلفة تشق عليه - إلا منافق شاك في الوعد والوعيد من الله، روي أنه ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٢].

ولا يكون ما ذكر إلا فيمن كمل إيمانه بالله، لكن ما دام الناس يتظالمون، ولا ينصر مظلومهم بإقامة الحق له، وظالمهم برده عن ظلمه من شرار خلق الله، حتى إذا فعلوا ما يوعظون به من قول الله وقول نبيه في الظالم والمظلوم عدوا من خيار الناس عند الله، وروى البخاري أنه ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل: يا رسول الله إن كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه وتمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه»[٣].

فعلى قدر ما يصنع قوم ما ذكر تكون خيريتهم، وعلى قدر ما يدعونه تكون شريتهم وبطرهم بنعماء الله، فعلى من يريد النجاة من سوء العواقب أن يسعى في خاصة نفسه ليزحزح عن النار ويدخل جنة الله.

خاتمة في ذكر أخلاق المؤمن وبضدها تكون أخلاق المنافق

روي أنه ﷺ قال: «يا معاذ! المؤمن لدى الحق أسير، يعلم أن عليه رقباء على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من هوى نفسه

---

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم (٢٤٤٢) ومسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٨٠) عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان (١٣) ومسلم في كتاب الإيمان (٤٥) عن أنس مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري في كتاب المظالم (٢٤٤٣، ٢٤٤٤) والإكراه (٦٩٥٢) عن أنس مرفوعاً.

وشهواته، وحال بينه وبين أن يهلك فيما يهوى بإذن الله، يا معاذ! إن المؤمن لا يأمن قلبه ولا تسكن روعته ولا يأمن اضطرابه حتى يخلف الجسر وراء ظهره، إنه يتوقع الموت صباحاً ومساء، فالتقوى رقيبه، والقرآن دليله، والخوف محجته، والشوق مطيته، والحذر قرينه، والوجل شعاره، والصلاة كهفه، والصوم جنته، والصدقة فكاكه، والصدق أميره، والحياء وزيره، وربه من وراء ذلك كله بالمرصاد، يا معاذ! إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينه، يا معاذ! إني أحب لك ما أحب لنفسي، وأنهيت إليك ما أنهى إلى جبريل، فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاه الله منك» الرواية من الجامع الكبير للسيوطي[1].

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

اللهم نور منا البصر والبصيرة، و اجعلنا ممن أبصر فاعتبر، وممن سمع وأطاع واصطبر، حتى نال منك الغوث بود الظفر، إنك أنت الرب الرؤوف الرحيم، الودود الأبر.

رحم الله امرأ أذعن لما ذكر فيها من الحق وقيوده، وترحم على من ألَّف ما فيها من متن، وعلى من شرح ما يعضدها من آية وحديث، وقيد ووعد ووعيد، ووكل سريرة الماتن والشارح إلى الله، فإنه الرقيب والمحاسب والحفيظ على كل عامل عمله.

(١) حديث معاذ رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١)، وأورده السيوطي في الجامع الكبير (١/ ٢٧٣٠٩)، وروى الطبراني في الأوسط كلمة: (إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من هوى نفسه). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٢): (وفيه عمرو بن الحصين وهو متروك).

أهم المصادر للتحقيق

- إتحاف المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري.
- تفسير ابن كثير.
- الجامع الكبير للسيوطي.
- سنن أبي داود.
- سنن ابن ماجه.
- سنن الترمذي.
- سنن النسائي.
- شرح مسلم للنووي.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- صحيح الجامع للألباني.
- صحيح الترغيب والترهيب للألباني.
- مجمع الزوائد للهيثمي.
- مستدرك الحاكم.
- مسند أبي يعلى.
- مسند الإمام أحمد.
- مسند سعيد بن منصور.
- مصنف عبد الرزاق.
- المعاجم الثلاثة للطبراني.

فهرس المحتويات

من منشوراتنا

تنزيه الذات والصفات

من درن الإلحاد والشبهات

تأليف

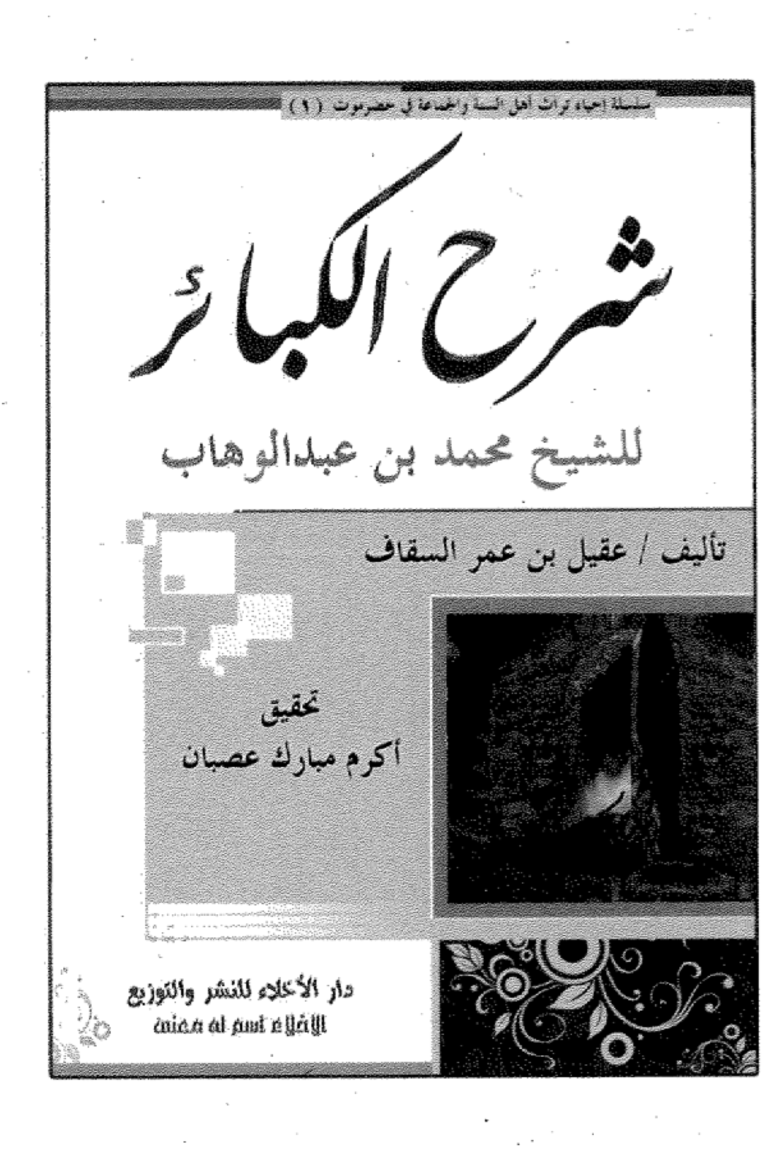
محمد بن محسن العطاس

تحقيق

أكرم مبارك عصبان

دار الأخلاء

للنشر والتوزيع



دار الأخلاء للنشر والتوزيع

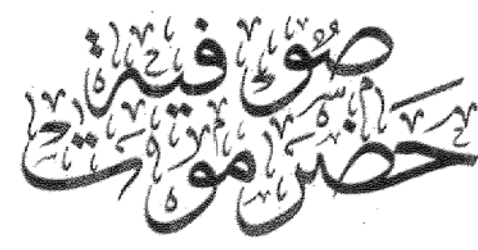
الأخلاء اسم له معنى

الجمهورية اليمنية _ حضرموت

المكلا _ ٤٠ شقة على طريق فوه مقابل مستشفى الأمومة والطفولة

جوال : ٧٣٤٠٠١٥٨١ - ٧٧٧٤٧٢٩٠٢ (٠٠٩٦٧) ص.ب: ٥٠٨١٦

E-mail:salim_break@hotmail.com
E-mail:salim_break@yahoo.com



WWW.SOUFIA-H.COM

نكشف الحقائق الغائبة للباحثين عن الحقيقة